أرواح

مبعثرة

حسان سلطان

2023 -2-2

قد نكون قساة لنغلق الطريق على أناس يرغبون
فينا ولا نرغب فيهم حتى لا تضيع حياتهم
هباء وهم يسعون ورائنا ، قد يتصدعون أحياناً
من داخلهم لكن تلك الصدوع والأوجاع
ستشفى حين يبرؤون منا والزمن كفيل بشفاء
جروحهم ، والحب ينزح الحب

الإهداء

إلى كُلِّ عاشقٍ للحياة مقيد..

إلى كُلِّ مُفارقٌ لحبيبهِ تنهد..

إلى كُلِّ زهرةٍ ذبلت من عطشها ترتعد..

إلى كُلِّ حبيبٍ فارقَ حبيبته وابتعد..

إلى كُلِّ عشاقِ الدُّنيا للأبد..

وإلى حبيبي وابني باشا الغالي فليحيا ويسعد..

وإلى وتيني مدللتي والروح لحبها تشهد ..

المقدمة :

من الأقلام المكسرة ، من دواة الحبر الفارغة ، من الألم والمعاناة ومن حياة كلِّ بائسٍ معذب ، أبدأ كتابتي عن كلِّ عشاق الدنيا ، عن الألم والمعاناة عن عاشقٍ هو مثالٌ من أمثلة كثيرةٍ لعشاقٍ في زمان ضاع منه معنى العشق وانتهت فيه معاني الحب الأصيل وكلُّ ما ساد فيه هو المنفعة والمصالح ، حتى في أجمل وأثمن المشاعر ألا وهي مشاعر الحبِّ والتضحية فقد اختلطت المعان وساد الصمت الغريب على الكثير والكثير من المشاعر الإنسانية المبعثرة ، وغاب عنا ما كان للحبِّ من مشاعر وإحساسات ، قد نقول الزمن تغير أو إن الوقت الماضي ليس كالآن ، ألم نعي أنَّ الوقت والزمن هو احتسابٌ فقط ، وأمر جدلي ليس

فيه من المعاني إلا غبار طلعٍ لا معنى له دون الزهر الذي يقوم بتلقيحه ، فما تغير هو فقط نحن البشر بمعانينا ومعتقداتنا وثقافتنا ، فقد نبني حياتنا على المصالح سواء للشباب اليوم أم للأهل ، وتفكيرهم وحتى سلطتهم المُمارسةِ على أبنائهم سواءً من قِبَلِ الحرص عليهم أم من قبل العقلية المتخلفة التي لا زالت ملموسة الوجود في الكثير من المجتمعات ولست هنا إلا باحثا راسماً لمعاناة من عاش قصة حبٍّ وعانا ما عانى سواء من المجتمع أم من عنجهية الأهل وغيرها من الظروف ونبدأ بقصة فيها من الواقع الشيء الكثير محاولين ملامسة الواقع الراهن وما آلت إليه الأمور من تناقضات ، قصة شاب قد تبدو للوهلة الأولى مشابهة للكثير من القصص لكن لكلِّ قاعدة شواذ ، وما الشواذ إلا اختلاف واتزان بين المعتاد والمعقول .

-1-

في ليلة من ليالِ الشتاء الحزين ، في مدينةٍ مظلمةٍ حالكة السواد وبينما الرياح تهز النوافذ القديمة وتتلاعب بأغصان الشجر الذي يصدر صوتاً كمطاحن الريح و تشتد حدتها تارة وتقل أخرى ، مطاحن تعبت من السنين الطويلة والزمن القاسي الذي عاشت به والليل ؛ آهٍ من الليل قد أخذت ظلمته تشتد شيئا فشيئاً بعد غياب القمر بين الغيوم السوداء ، وشمعةٍ بائسةٍ أشعلها اليأس والأسى .

نظرت إلى الشمعة وقد ذرفت عيناي دمعة حزينة دفأت قلبي الجليد شمعة قد بدأت بالزوال ، قد احترقت وبدأ يتلاشى نورها شيئاً فشيئاً فنهضت

وأحضرت شمعة ثانية واليأس يتقاطر من عيني ، فما الذي جاء بي إلى هذه الغرفة ؟ وما المصير الذي ينتظرني ؟

أفكارٌ سادت في ذهني وعقلي ومشاعرَ حزنٍ تملأ المكان ، هكذا بدأت الأفكار تجول برأسي كأزميل نار يحرق عقلي وأنفاسي .

أنا شابٌ بائسٌ كلُّ ذنبي في هذه الحياة أني أردت أن أعيشها مثل كلِّ البشر أردت أن أعشق الحياة أعشق ما فيها من جمالٍ وطبيعةٍ وحبٍّ لكن متى كانت الحياة تمضي بلا ألم ؟

متى كانت تخلو من المآسي والأحزان ؟؟

أين وأين ، بل ما هي السعادة ؟.

أفكار كثيرة تصول وتجول في رأسي ، من تكلم يا مختار ؟.

فكرت كثيراً وكثيراً بتلك الكلمة ومعناها لكني لم

أتوصل إلى أية نتيجة تذكر ، لم أصل إلى السعادة ومعناها ، فمن أنا حتى أعرف ما هي السعادة ؟

لستُ إلا هاوياً غاوياً في حياةٍ ملؤها الحزن والأسى حزناً ودمعاً أرهق أعماقي وروحي ، وبدأ ينهي حياتي حتى إني بدأت أشعر بقدوم أجلي ربما كان شعوراً فحسب لكن ما عسا نفسي أن تفعل وقد أصاب مني اليأس موطنا لا يفارقه ، ولست راغباً بمفارقته ، فلما أعيش الآن ؟

لما أحيا وقد فقدت كلَّ شيء ؟.

حبيبتي الغالية ، أمي الحبيبة وبيتي و أخوتي ، لما أعيش ؟.

اقترب أيها الموت ، فلستَ تخيفني ، بل لعلك أرحم عليَّ مما أنا فيه ومن معاناتي ومأساتي .

بدأت أهيم في ذاكرتي بعيدا وبعيدا حتى أصل بها إلى تلك اللحظة .

تدخل أمي إلى غرفتي وتعب النهار بادئ في ملامح وجهها فرفعت ناظري إليها مبتسما أتمثل وجهها امرأة أتعبها الدهر وأبان عليه ملامح الكهولة والتعب رغم ابتسامتها المستمرة قالت وهي تمسح على شعري :

- مختار حبيب أمك جاءك زائر .

- من يا أمي لا انتظر أحد ؟

فقالت وهي تنظر في عيني بعطف :

- إنّه الأستاذ مازن .

فابتسمت ونهضت أمسك يدها وقلت :

- الأستاذ مازن ؟ فالأرحب به يا أم مختار .

فتحت الباب فكان مازن واقفا خلفه وقلت :

- تفضل يا عزيزي مازن ، كيف حالك ؟

دخلنا فناء البيت وقد رحبت به أم مختار وقالت :

- كيف حالك يا مازن وكيف هي زوجتك ، إن شاء الله الحمل لا يتعبها ؟

دخل بثيابه الجميلة وهامته الضخمة ، شاب يافع تفوح

منه رائحة زكية وقال مبتسماً :

- شكراً لكي يا خالتي ، الحمد لله لا زالت تعاني بعض التوعك لكنها بخير شكرا لكي .

- لا تقلق عليها يا بني هذا حالنا نحن النساء في الشهور الأولى من الحمل لكنها تمضي إن شاء الله ، تفضل الآن يا بني .

بحفاوة كبيرة استقبلت ضيفي وتسامرنا بهنيهة هنيهة في باحة الدار بعتباته المتراصة وحيطانه الملونة المزخرفة والصور تتربع عليه كثمار شجر متسق يمنحه الرونق والجمال نتخبط بإقدامنا وصولاً إلى غرفتي وبعد أن جلسنا قلت مرحباً به :

- أهلاً يا صديقي العزيز كيف حالك ؟

- شكرا لك يا صديقي كيف حالك أنت ؟

- أنا بأحسن حال والحمد لله ، اجلس يا أخي .

جلس على الكرسي جانب طاولة الدراسة وقد بدأ بتفحص الغرفة بنظراته بحيطانها البيضاء وفرشها

البسيط وطاولة للدراسة ومقعد ومكتبة صغيرة فيها بعض الكتب وطاولة للحاسوب .

فقال وهو يقلب عينيه بين كتب المكتبة :

- إنَّ غرفتك جميلة يا صديقي لم أكن أعرف أنك تهتم بالكتب .

- وهل نسيت أني لا زلت طالبً و أدرس لست مثلك يا صديقي قد أنهيت دراستك وأنت الآن تعمل مدرساً في إحدى مدارس المدينة وأضنك تحب عملك وتتفانى فيه ، أما أنا فلا زال الطريق أمامي طويل .

بابتسامة فاغرة يكاد صوتها يصل إلى مسامعي أجاب

- لا تخف من يمشي يصل وأنت ستصل إلى مبتغاك إن شاء الله .

– أعرف هذا لكن الطريق صعبٌ جداً ويتطلب الكثير من الجهد والمعاناة فكما تعلم أنا من عائلة بسيطة والدراسة تتطلب مصاريف وغيرها .

- لا تفكر بتلك الطريقة يا أخي من يريدِ الشيء يسعى إليه وما المصاريف إلا عثرة تافهة أمام غيرها من الأمور التي ستواجهك .

- ربما يا أخي لكن لا أعتقد شيئاً أخر سيعوقني في تحقيق حلمي .

بكلمات ثاقبة تلهب العقل وابتسامة هادئة وارتياح يبعث في النفس قال :

- ربما يا أخي لكن ماذا عن القلب ومشقاته ؟ هل وقعت به يوماً ؟

جحظت عيناي و رسمت بنظراتها دائرة وهالة من الضباب حوله كأنه تكلم عن الشرك وما يليه من سخط وغضب من الله وقلت :

- الحب ؟ أضحكتني يا أخي ما لي و للحبِّ ، لم أفكر يوماً ولن أفكر عن أيِّ حبٍّ تتكلم ؟

ليس هناك حبٌّ في هذا الزمان ، زماننا يختلف عن زمانكم .

باستغراب كبير وبنضرة خبث رمقني بها وقد علا عليه الاستغراب وقال :

- وما الفارق بيني وبينك يا مختار ، كلها أربعة سنوات .

- وإن يكن فمنذ أربع سنوات تختلف عن اليوم واليوم يختلف عن الغد وكلُّ يومٍ يمضي يكون أفضل من الذي يليه .

بضحكة فاغرة واعتدال في جلسته أجابني :

- الله يا مختار ماذا تقول ؟ ما بالك والزمان؟

ثمَّ من قال لك إنَّ الزمان هو من يحدد وجودنا أو يؤثر بنا ؟

ما الزمان يا أخي إلا أداةَ وقتٍ وتوقيت لاحتساب العمر ، وليس هو بشيءٍ قد يتغير أو يعمل فرقاً ، إنما من تغير ويتغير نحن البشر ، نحن من نرسم خطوط حياتنا ،ومن حدد معنى الحبِّ والإخلاصِ والوفاءِ وغيرها من الأمور كلها نحن من نحدها وليس الزمن .

كلمات معبرة قد سمعتها كأنَّي أسمعها أول مرة ثمَّ بنظرة متشكك قلت :

- الله على كلماتك يا صديقي ، أفكارك جميلة جداً لكني لن أسعى إلى الحبِّ ولا أريد الوقوع فيه دراستي ثم دراستي ، ما لي وللحبِّ يا أخي كلَّه تعبٌ ومعاناة ألا ترى ماذا يحدث ؟

كلَّ يوم نرى في التلفاز والحياة وفي الشارع والانترنت كلَّ يوم نشاهد ونسمع عن أناس يبكيهم الحبُّ ، لا يا أخي لا أريد الحبَّ ، كلُّ من يحب ينتهي حبَّه إمَّا أن تخونه الفتاة أو لا يعطوه أهلها أو يعترض عليها أهله كلُّ حبٍّ نهايته الفشل ولا تجني منه غير التعب والحرمان والدموع .

اغتاظ من كلامي وبان عليه ملامح المجون كأنه قد سكر دون أن يشرب ، فأشعل سيكارة بعد دخول أم مختار وبيديها إبريق الشاي وقال :

- مسكين أنت يا مختار فلسنا من نتمنى الألم أو نشتريه

إنَّما يفرض علينا فرضاً ، فلو اشترينا الألم لاستطعنا أن نبيعه ، لكنَّه قدرٌ محتوم يجب أن نصبر عليه .

بمحاولة يائسة حاولت تهدئته فقدمت له كأساً من الشاي وقلت :

- اشرب الشاي اشرب حسنا يا أخي إن فرضنا أننا لا نشتري الألم ، فهل تقول لي لماذا نسعى وراء الحبِّ على الرغم من معرفتنا أنَّه ألم ومعاناة .

تنهد تنهيدة مستطردة طاردة ما علق بذهني من أفكار غليظة الشأن كما ضنها وقال :

- ومن قال إنَّ الحبَّ ألمٌ وشقاء ؟

إنَّه كلمة نقولها ونسمعها ونرددها لكننا لم نصل إلى معناها ، فهو أكثر من معنى وأجمل من لحظة .

فارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهي وأذعنت مستسلماً لضيفي وقلت :

- حسناً يا عاشق اخبرني ما هي تلك المعاني ، فلست أعرف عنها شيئاً لأني لم أجرب الحبَّ يوماً وأنت

المغامر الكبير وقد تزوجت زوجتك متأكدٌ أنه عن طريق الحب .

فاعتدل بجلسته بعد أن ارتشف شيئاً من كأس الشاي وابتسم ابتسامة الواثق الراسخ وقال :

- يمكنني أن أحدثك عن حبِّ الجنس الآخر وحبِّ الأبوين والأخوة وحبِّ الله وغيرها من الأنواع ، وكل إنسان يود أن يعرف ويقول ما هو الحب وكلٌّ بحسب ما يريد ، لكن على الرغم من المحاولات الكثيرة فلم يُعرف المعنى الحقيقي للحب .

فتحت فاه مستغرباً مستبعداً ما علق بأذني من كلماته ونظرت إليه نظرة تفحص وتمعن علي أرى ما في خلجاته من كلمات وقلت :

- لكنك تقول إنك تعرف معانيه وأضنك وكما ذكرت قبل قليل قد تزوجت من زوجتك حباً ولا زلت شغوفاً بها رغم زواج دام عامين فلا تقلب كلماتك ولا تخبئ ما لا قدرة لك عليه .

سكت برهة ثم قال بعد أن أحس بمحاصرتي له :

- سأكلمك عن الحب الجنسي أو حب الجنس الآخر فهو ما يهم لأنك ببداية شبابك وقد تتعرض له في أية لحظة ، ولا تقل لي لا أريد فهو أمر حتمي كالموت كلنا داخلوه ، سواء أكان قبل الزواج أم بعده .

فملأت كأس الشاي الفارغة والفضول زاد بين عيني لحديثه وقلت :

- خذ يا أخي اشرب الشاي وأكمل فقد زاد فضولي وشغفي لعلك بما تقول حقيقة لست أدركها .

- الحب هو السلطان الحقيقي والقدرة الكاملة ، إنه أصل كلِّ حبٍّ شعور نابع من أعماق النفس الباطنية للإنسان ، كلُّ إنسان ، إنَّه كبراعم زهر تروى باللقاءات والأشواق وتثمر شيئا فشيئا ، ويجب الاعتراف بقيمة اللحظة التي تُمنح فيها منحاً حقيقي في التقاء اللذين يعترفان بأنَّ أحدهما قد خلق للأخر فبحبهما يؤلفان واقعاً حقيقيِ لتاريخهما بغض النظر

عن الاختلاف بينهما ، الحب يا صديقي ليس امتلاكاً إنَّه من الآخر ولأجل الآخر .

إنَّه يخلق العشاق لكنَّه ليس تحت تصرفهم ، فترى العاشقين بشكل دائم بمواقف متشابهة ويكرران القول ذاته منذ بداية شبابهما حتى الشيخوخة البيضاء ، لكن مع هذا فإنَّه ليس جديراً بالثقة ويتغير بتغير الأفراد والزمن فزاد تعجبي من كلمات قد أكون أسمعها أول مرةٍ بحياتي وشرود قد أوصلني إلى مكان لا أعرف ماهيته ومكانه أو حتى زمانه وقلت :

- لكن لما كان غير جدير بالثقة أليس هو بريء وطاهر ؟.

- بلى هو كذلك لكنه لا يشمل على المعنى الواسع للحب .

- المعنى الواسع ؟ لقدِ حيرتني .

- إنَّ الحبّ هو أكثر من الجنس وحبِ النساء ومعناه أوسع إلى ما لا نهاية وخير مثال هو حبُّ الله ، إنَّ

حبَّ كائنٍ بشري تكون رؤيته رؤية مشخصة حتى لو كان هذا الحب يتجاوز حدود الزمان ، أما حبَّ الله فإنَّه باعتقادي الحبَّ الأسمى والمعنى الحقيقي للحب .

سكت مازن لبرهة ثم استطرد

- اسمح لي يا صديقي سأذهب .

أفقت من ذهولي فقلت :

- إلى أين يا أخي ما زال الوقت مبكراً ؟.

فهمَّ بالنهوض قائلاً :

- اعذرني يا أخي يتوجب علي المغادرة فكما تعلم زوجتي لوحدها الآن ولست راغباً بالتأخر عنها أكثر .

- حسنا يا صديقي رافقتك السلامة .

كم كانت تلك الأيام جميلة ، تلك النفحات من الذاكرة آه يا ذاكرتي ، كم تحاولين أن تتعبيني ، كم وكم تريدين شقائي ؟ تلك الذكريات ، ما لها لا تفارق مخيلتي ، ما لي لا استطع النوم ، قارب الفجر على

البزوغ لكن يا نوم لما الجفاء اقتربت حياتي من الهاوية ، هاوية النسيان التي لطالما أردتها أن تكون أنيسي لكن هيهات ثم هيهات ، استفقت من غفوتي وقد طل الصباح ، صباح مغبر بغيوم خفيفة وطرقات الباب قد أيقظت جميع من في المعمل .

بيدٍ كأنها مطرقة تطرق على الحديد لتسويته وصراخ قد ملأ المكان ليس الغاية منه سوى الاهانة ، كان صاحب المعمل أبو عبد الله الذي وضعني عنده السيد عمران دون أن يخبره عن قصتي بشيء يدق الباب بقوة وقال بصوته الجهوري - مختار أيها الكسول انهض ما بالك نائم حتى الآن فقمت بتعب وعجالة أفتح باب غرفتي التي منحني إياها مقابل عملي طيلة النهار ففركت عيني الناعسة وقلت :

- أسف يا سيدي لم أشعر بقدومك .

هز رأسه وقال :

– لا يهم الآن ولتبدأ العمل .

هززت برأسي مؤيداً وقضيت نهاري كلَّه كاداً في عملي الذي أختفي فيه عن الأنظار لهذه الفترة ، أحمل الخضار وأنزلها من البرادات وإليها معمل ضخم للكون سروا لرجل أقل ما يقال عنه أنَّه ظالم مستعبِدٌ جبار والأيادي والإهانات تنصبُ علي كقطرات المطر البارد ، المطر القاسي والبرد الشديد إنه نفس المطر الذي كنت أتنفس عبق عطره حين كان ينزل ليسقي بستاننا في المدينة الخضراء ، ذاته هو المطر الذي لطالما تنفست عطره وتمايلت تحت قطراته .

سكن الليل ويا ليل ما بالك والذكريات تعصف بي

يا ليل خفف ظلمك كظلم البشر ساد القلوب

وأصبحت من الحجارة أقسى ، جلست متعباً في غرفتي وقد خلا المعمل من البشر فقط أنا وتلك الجدران والأشجار الهرمة التي تحيط بمعمل أبو عبد الله حتى الكهرباء تغادر مساء ، هذا اليوم هو الثالث لي هنا

ولست أعلم إلى متى سأبقى فيه لكني سأصبر وليس بيدي حيلة بعد الذي حدث .

-2-

ذكرياتي ، في ماضٍ قريبٍ بعيد ، أيامٌ قد ابتعدت وزال طيفها من مخيلتي وبات الحاضر كغمامة سوداء لا تنتهي ، وتجوب بي الذكريات كعاصفة سوداء لا تنتهي وعدت بها إلى ذلك اليوم عندما استيقظت وداخلي من الضيق لا أعرف معناه ، قد يستفيق الإنسان من نومه والأرق مصاحباً له ربما هي حالة طبيعية ، أفكار سادت في ذهني وتعالت الأفكار حتى أصبحت كلماتٌ همسَت بها بيني وبين ذاتي ضيق في نفسي وأرق لم أشعر به طيلة حياتي ، ما بي ؟ربما السهر وربما لا .

قد تكون حالة ملل كنت قد أحسستها وتراكمت بداخلي حتى أشعرتني بما أشعر به ، أسئلة دارت في مخيلتي وأفكار قد بدأت تعصف بعقلي الهرم شاب في مقتبل العمر لا أزال لا أعرف من الدنيا إلا

الأشياء الجميلة لي أسرة جميلة ، أبوان وأخ وأخت وأصدقاء وأقارب

- يا نفسي لما كل هذا الجفاء؟

ما المقصود ولما العناء .؟

تقاطع أفكاري بابتسامتها الحنونة بعد أن تفتح باب غرفتي

- مختار حبيب أمك تعال وتناول فطورك ، نداءٌ قد أفاقني من غفوتي الحاضرة الغائبة ويوم لا يزال يعبق في الأنفاس عطره ، آه لو يعود خرجت إلى غرفة المعيشة وأنظاري تحلق حول كؤوس الشاي التي يتطاير منها البخار والطاولة التي تحلَّق حولها كلٌّ من أختي رزان وأخي الأصغر ريان فسألت والدتي باستغراب :

- أين والدي يا أم مختار ، لست أراه كعادته على الفطور فقالت وهي تسكب لي الشاي :

- قد ذهب يتمشى إلى البساتين ، أبوك وتعرفه لا يستطيع العيش دون أن يتنفس من ريح الأرض إنه يعشقها .

- حسنا يا أمي وأنا أيضا خارج لأتمشى .

- لم تأكل شيئا ، لا تقل لي إنك شبعت ؟.

هززت برأسي مؤيداً وقلت :

– نعم اكتفيت ، أكملي فطورك مع ريان ورزان .

قال ريان ببراءة :

- إنها العادة نفطر لوحدنا ونذهب للمدرسة وأنت وأبو مختار الله معكم ، كلمات بريئة تخفي بين طياتها بعضاً من الخبث قالها ذلك الشقي .

قالت رزان ضاحكة :

- حسناً يا ريان دعنا نتناول فطورنا ونذهب إلى المدرسة لا نريد أن نتأخر .

- لا تخافِ يا شطورة لن نتأخر .

– بلاها فلسفتك وهي بنا نذهب ، تتعالى الضحكات بين الأطفال غير آبهين بما حولهم وتبتسم والدتي لضحكاتهم ، رزان لا تزال في مرحلة الإعدادي وريان يصغرها بسنة لكنه كان يشقيها ويغلبها في دلاله ومكره على والدينا ربما لأنَّه ولد أو لأنَّه كان آخر العنقود ، لحظة من العمر ليتها تعود ، ريان أخي وصديقي وحتى ابني أين مكانك الآن وأنت يا رزان هيهات ثمَّ هيهات بضمة منك الآن .

خرجت من البيت تسوقني قدماي ، شارع يمشي فيه الناس وأخر ليس فيه أحد ، حارة تلو أخرى كأنِّي عازم على قياس شوارع المدينة تسوقني قدماي لا بل تسوقني الأقدار ، من خطوة إلى أخرى ، وأنا أتفحص المنازل وأجوب بنظري بين الحدائق ، لست مفكراً إلى أين المسير ، جلُّ ما كنت أفكر به هو المسير والمسير المسير والابتعاد ، عن بيتي ، عن قدري و عن حياتي

ما بالي لا أسير وقد تعاظمت لدي الحيرة والفضول فضولٌ قد ساقني إلى بيتٍ لعلي لم أكن قد رأيته من قبل ، في حارة غريبةٍ بعيدةٍ بين زقاق المدينة لفت ناظري حديقة أمام بيت كبير مؤلف من طابقين كان فيها من جمالِ البناء والمناظر والأزهار ، فيا لتلك الحديقة يا لتلك اللحظة ، دقات قلبي قد ازدادت وبصري قد ثبت واستقام واتسعت عيناي والخطوات قد تباطأت كأنَّما قد وقعت على نور نازل من السماء وجمال لم أعي من أين جاء والنجوم كأنَّها متناثرة في الأرجاء ، حديقة مليئة بالزهر أشكاله وألوانه ، و فتاة تسقي أزهارها بعينيها بجمالها تسابق أزهارها والفراشات تتطاير حولها مالئةً الأرجاء ، وخصلات شعرٍ يتطاير مع النسمات تسقي وعيناها شاردة سارحة لا تعي ما حولها كأنَّها زهرة في حديقتها سارحة لا تستطيب المفيق .

الله يا سلمى أنت معي الآن بقلبي وروحي و بين أنفاسي أنت معي فأشعلت سيكارة ، وجلست بهدوء وصمت ، وحيداً بين جدران الليل في غرفتي و ليس لدي ما يحييني ودمعة حبيسة قد أطلت من جفوني مسترقة النظر خارجة مسترسلة إلى اللا وجود .

نادت أم سلمى عليها - سلمى تعالي يا ابنتي ادخلي فاستفاقت من غفوتها بين أزهار حديقتها وأجابت :
- نعم يا ماما سآتي الآن قد انتهيت من سقاية الورود ثم بخطى سريعة دخلت عتبات الباب وأغلقته خلفها تاركة الأوهام والأحلام خلفها دون أن تعلم تاركة قلبي الذي كان واقفاً مذهولاً من جمال ما رأى صحيح أنَّها لم تلحظني ولم تشعر بما شعرت لكن الأيام ستجمعها بي والأقدار كان لها مشيئة أخرى .

دخلت سلمى بيتها ببهوه الكبير والسلالم المزينة الصاعدة إلى الطابق الثاني والأثاث الفاخر فقالت

باحثة عن والدتها :

- ماما أين أنت ؟

تسمع صوتها الخافت يناديها من المطبخ

- تعالي يا ابنتي أنا هنا في المطبخ ، تعالي لتساعديني في وجبة الغداء حتى نستطيع أن نجهز ما طلبه والدك لضيوفه .

تفتح عينيها وتغلقها بنوع من الضجر

- ماما كل يوم ضيوف ، كل يوم وجبات غداء وعزائم ما هذه الحالة ؟ فقالت والدتها وهي تقبض على أذنها مداعبة :

- اسكتي يا بنت وتعالي ساعديني .

فضحكت وهي تفلت من يدها وقالت :

- حاضر يا ماما حاضر أمري لله .

فتقوم بغسل الخضار وتقطيعها وتقضي يومها بين المطبخ وأعمال المنزل .

توالت الأيام بدقائقها ، بساعاتها متسابقة سريعة بطيئة ولم أكن أعرف ماذا حل بي فقد كنت في كلِّ يوم أمرُّ من أمام تلك الحديقة لأرى تلك الفتاة أصادفها أحياناً وأخرى لا ، كانت تنظر إليَّ أحياناً وأخرى لا تعيرني أي اهتمام فمن أنا إنها لا تعرفني ؟ فأنا حتى لم أجرؤ على الاقتراب منها والتحدث إليها ، كنت غريباً ماراً بالجوار أو غبار طلعٍ يسقي الأزهار ، أم إنَّني لست ممن يلفتون الأنظار ، لكنها تلتفت أحياناً فبتُّ أشعر بقرب إحساسها من إحساسي ، ربما مجرد إحساس ، لكنه أضناني وأرَّق مخيلتي ولست أعي ما يجول بخاطري ولا لما أذهب أو أحاول الاقتراب منها جُلُّ ما أدركه هو الحاجة والحاجة الملحة لرؤيتها وفي يوم طرقت باب بيت مازن ففتح الباب .

فقال برحابة صدر : -

أهلا يا مختار تفضل .

- أهلا يا صديقي شكرا لك .

دخلنا إلى الصالون كان بيته بسيطاً تشوبه مسحة هادئة مريحة وأثاث بسيط لكن رغم بساطته يشعر الشخص بالطمأنينة فشدني من يدي وقال :

- ولما الشكر تفضل البيت بيتك ، أختك صفية في المطبخ إنَّها تحظر الغداء ، جئت في وقتك .

فجلست على الأريكة وجلس مقابلاً لي بعد لحظات أقبلت صفية بابتسامتها المعتادة وقالت :

- من عندنا ؟

أهلا يا مختار أهلا ، ما هي أخبارك ؟ .

- الحمد لله يا أختي أنتي كيف حالك ؟

فوضعت يدها على مازن وقالت :

- أنا بخير والحمد لله والآن عن أذنكم سأعد لكم القهوة .

قال مازن وهو يربت على يديها :

- حسناً يا زوجتي العزيزة ولنذق أطيب قهوة من يدك الجميلة .

ربتت على يده هي الأخرى وغادرت .

غمزت له وقلت :

- الله ما هذا الغزل أنا أحسدكم ؟.

– ماذا تحسب إذاً إنَّها غاليتي و حبيبتي .

ردت صفية بابتسامة وهي تحضر القهوة :

- شكراً يا حبيبي ألله يحفظك يا عمري .

قال مازن وهو يعطيني القهوة :

- تفضل يا مختار ، أأشعل لك سيكارة ؟ .

- لا يا أخي أعوذ بالله لا أريد ، قال أدخن قال فابسم ابتسامة عريضة وقهقهته تكاد تكون مسموعة وقال :

– حسناً كما تشاء .

وبينما نحن جالسين يرن هاتفي فنظرت إلى شاشته وقلت :

– هذا قلب الأمهات لا تكاد تتركني لحظة حتى تتصل

جاءني صوتها :

- ماما أين أنت حبيبي لما لم تعد إلى البيت حتى الآن أقلقت فكري عليك ؟.

- أنا عند مازن يا ماما لن أتأخر .

- حسناً يا حبيبي حسناً .

فقلت بعد أن أنهيت المكالمة :

- تعرف يا مازن قلب الأمهات إنَّه كبير دائماً تخاف إنَّها رغم كبر عمرنا تحسبنا صغار .

هزَّ رأسه بالموافقة وأكمل :

- أكيد يا أخي إنَّ كلَّ الأمهات هكذا.

ورمقني نظرة عميقة وقال :

- ما بالك أنت ، أراك مختلف عن كلِّ يوم ؟

أهناك شيء تخفيه عني ؟ .

- إنها لأمور غريبة يا مازن ، كيف تستطيع الفتاة أن تشعرك بحبها تارة ثم تقوم بقتل ذلك الشعور ؟ تجعلك قريباً منها كظلها ثمَّ تنفرك ، تشعر أحياناً بنبض قلبها ثم تختفي يا لها من فتاة ، أكلُّ النساء هكذا أم أني غرٌّ في تعاملي معهن ؟

حاولت التفكير بهذا الموضوع لكني لم أفلح .

اعتدل في جلسته وأعطاني جُلَّ انتباهه

- ماذا تعني بكلامك لست أفهم عليك ؟

لا تتكلم بهذا الغموض و أخبرني ماذا تعني اشرح لي بسرعة :

- لا تستعجل سأخبرك الآن .

- هات ما عندك ولا تترك صبري ينفذ ، فقد بدأت أحتار في ما يدور في رأسك .

- لا تقلق ليس بالأمر المهم لكنَّها مجرد أسئلة تدور في مخيلتي .

- أسئلة ؟

أتحسبني غبي إلى هذه الدرجة ؟

على هامان يا فرعون ، أنا الذي أعرفك جيدا تكلم .

- قد حدثتني في إحدى المرات عن الحب ، وكيف أنَّه يمتلك الشخص وأخبرتني عن حبِّ المراهقين والحب بشكلٍّ وما فيه وما له وكيف أنَّه يأتي فجأةً كأنَّه الموت المفاجئ .

فهز رأسه مؤيداً مشيراً لي لأكمل

– تعرف ؟

أشعر بحيرة كبيرة فأحياناً أشعر بنفسي وقد ارتميت بين أحضان الحبِّ كالغريق وأخرى لا أشعرُ بشيء ولما لست أعرف .

فابتسم ابتسامة عريضة :

- يا عيني عليك يا مختار قد وقعت في الحبِّ أخيراً من هي أخبرني ؟.

رفعت عيني في الفراغ

- حبٌّ ؟

لست أدري إن كان حباً أم لا ولست أعرف ما الحب بل أنا بخلافك أخاف الحبَّ ولا أريده .

فضحك وقال :

- على العكس يا صديقي الحبُّ إحساس جميل ، بل إنَّه أجمل ما يميز الإنسان ويمنحه الحياة ، فيه تشعر بإنسانيتك .

- لا أعرف يمكن .

- المهم من هي تلك الفتاة أخبرني هل أعرفها ؟

فنظرت إلى عينيه وقلت :

- أأصدقك القول ؟.

لست أعرفها .

فغمرني بنظرة تشكك وقال :

- ماذا أتمازحني ؟ .

ماذا تعني أنك لا تعرفها ؟

وهل يحبُّ أحدٌ شخصاً لا يعرفه هل رأيتها في المنام أم الحقيقة ؟ .

- كما سمعت لا أعرفها ، كلُّ ما أعرفه أن هناك فتاة في الأحياء الغربية البعيدة من المدينة رأيتها صدفة في حديقة بيتها .

فهز رأسه مؤيداً لأكمل وقلت :

- لم يحدث شيء ، رأيتها مرةً وأخذت عقلي بعدها أصبحت أتقصد كلَّ يوم الذهاب إلى ذلك الحي علّي أراها ، كنت أتقصد بشكل يومي ولست أدري لما تسوقني قدماي إلى هناك لكنها قد حيرتني .

بابتسامة خبيثة يرد :

- من حيرك قدماك ؟

لاحظت خبث سؤاله وأجبت باسماً :

- لا تثقل عليَّ يا مازن أتكلم عن الفتاة وليس عن قدماي .

ضحك وقال :

- حسناً ولكن ما اسمها ؟.

ألم تعرف ، ألم تكلمها ؟

هززت برأسي نافياً :

- لا لم اقدر ، كلما حاولت الاقتراب منها يحدث شيء هناك شيء يمنعني ما هو لست أعرف .

دخلت صفية إلينا مقاطعة حديثنا قائلة بابتسامة :

- الغداء جاهز تفضلا فاعتدل مازن ونهض ممسكاً بيدي وقال :

- حسناً يا حبيبتي نحن قادمان ونظر إلي وأكمل :

- هي يا أخي تفضل ولترى ضريبة الزواج ولذة الحبِّ والحياة الزوجية.

ضربته صفية على كتفه برقة وضحكت قائلة :

- ماذا تخبآن عني ؟

أجبتها بنوع من الغموض :

- نخبئ ؟ .

لا نخبئ شيء .

ضحك مازن من ارتباكي وأجابها :

– الظاهر يا عزيزتي أنَّ أخونا مختار قد غرق أخيراً .

غمزته صفية ونظرت إلي وقد فتحت عينها:

- أها إن شاء الله نسمع الأخبار الجميلة .

ابتسمت بارتباك بادي علي وقلت :

- لا يا أختي لا يوجد شيء مازن يداعبك فقط هل صدقتِ ؟

فتحلقنا على طاولة الطعام وبدأ كلٌ يتناول من صحنه

ترفع صفية نظرها إلي وتقول :

- ومن هي يا مختار ؟

رد مازن عليها عله يخفف عني بعد أن رأى التشتت على وجهي :

– المشكلة أنَّه لا يعرف من هي ولا اسمها ولا أي شيء عنها كل ما يعرفه هو بيتها .

ردت صفية وقد بان عليها التعجب :

- كيف ذلك أتمزح هذه المرة ؟

وهل هناك أحد يحبُ فتاة دون أن يعرفها ؟ .

رفعت يدي بهدوء إلى الفراغ ووضعت عيني في صحني وأجبتها بشرود :

- هذا ما حدث .

- الله يسعدها ، قبل أن تعرفها تحبها هذا الحب كيف إن أصبحت معك .

تهت بخيالي وأجبت بهدوء :

- لست أدري تفعل الأيام ما تشاء .

-3-

تفعل الأيام ما تشاء ، كلمة تلفظت بها ولم أكن أعي معناها ، لم أكن أدري إلى أي قدر قد تشاء الأيام وإلى أي حد يمكن أن تتوقف عنده ، جل ما كنت أتوقعه أن تكون الأيام جيدة ، لكنها شاءت وشاءت حتى أنهتني حتى أوصلتني إلى ما أنا عليه الآن .

أشعلت سيكارتي ونهضت لأغلي القهوة المرَّة ، مُرَّة كمرارة شعوري نظرت قليلاً إلى السيكارة وهي تحترق وارتشفت فنجان قهوتي وحيداً أنظر إلى دخان سيكارتي وأخاطبها

- سيكارتي صديقتي ، حبيبتي ، ملاذ روحي وموطن وجودي وربما سبب موتي ، موتي أين هو موتي ينتابني شعور بالموت ، أشعر أني على بعد خطوات منه، أرى نفسي محملاً كي أوضع في القبر ، أكاد أشم رائحة الموت تقترب ، فلتأتِ أيها الموت ، لتكن ملاذ

روحي ، فقد قتلتني الوحدة أرهقت أنفاسي وقصرت عمري ، فلتفعل الأيام ما تشاء .

سلمى ، حبيبتي الغالية افترقنا قبل أن التقينا ، ما كانت الأيام بقاتلة لي لكنها قتلتك ، أخذتك مني فقتلتني . آه يا سلمى .

تعود بي الذكريات بطيئة كسلحفاة إلى هناك ، إلى تلك الأيام التي كانت تدور وتمشي بتؤدة وفي يوم طرقت باب بيت مازن ففتح الباب ودخلت ليتنِ لم أدخل ليتها لم تكن يوماً تلك اللحظة ، ليت وليت لكنها حدثت .

طرقت الباب عدة طرقات ففتح الباب مازن وقد علت البهجة على وجهه وقال مبتهجاً كعادته

- تفضل مختار تفضل ، واخذ بيدي داخل المنزل وبعد خطوات من دخولي التقت عيناي بعينيها .

كانت سلمى هناك ، جالسة مع صفية ، جالسة كملاك

أبيض بفستان زهري منقوش كاشفة الرأس بشعر أشقر كلون الشمس ، وعيناها حين نظرت إلي أرهبتني ، عينان جميلتان بلون الربيع ، ورموش ساحرة كأنما هي إطار جميل حول لوحة فنية جميلة ، والخدود حين ابتسمت كتفاحة آدم قد أصبحت عارية كالروح الصافية ، سلمى .. ماذا تفعل هنا ؟

كيف حدث والتقيت بها ؟

شعرت بأن الزمن قد توقف ، وسرت رعشة في داخلي شعرت بها من أسفل قدمي وصولاً لرأسي وزادت دقات قلبي كأنما يريد الخروج من مكانه أسئلة دارت بذهني وأنا أنظر إليها والذهول في ناظري قد أخذ مني حيز الخيال والرحيل إلى عالم آخر

دخلت ولست مصدقاً نفسي وحين رأتني صفية قامت من موضعها وابتسامتها تسبقها وقالت :

- أهلا يا مختار تفضل ، أعرفك بسلمى مددتُ يدي

لمصافحتها وقد احمرت خجلاً وحين لامست يدي بيدها شعرت برعشة أصابت جسدي وشعرت باهتزاز قدمي كأنما أصابها الثلج ، أحساس لم اشعر به من قبل

أيفعل الحب كل هذا ؟

لم أعي بنفسي إلا حين سحبت سلمى يدها وقد أحمرت وجنتاها ، كأنها قد شعرت بما شعرت أو لعلها أحست بدقات قلبي التي أحسب صوتها قد ملء الدار لحظتها .

تمالك يا مختار حدثت نفسي حين وضع مازن يده على كتفي وقد لاحظ تغير انطباع وجهي وحاول تلطيف الجو فنظر لصفية وقال :

- ما رأيك لو تعدي لنا القهوة وغمز لها بعينه .

- لك ذلك يا حبيبي من عيني .

نهضت بعدها ونهض مازن من خلفها بعد أن غمز لي

- عن إذنك يا مختار دقيقة وأعود لك .

خرج من الصالون وتركنا وحدنا نظرت إلى سلمى

والخجل يقطر من محياها لم استطع الكلام أو ربما لم أكن أريد أن أضيع الوقت بالكلام كل ما كنت أريده هو إشباع ناظري منها فقد كانت أول مرة التقي بها عن قرب كنت فيما مضى أراقبها من بعيد ، أما الآن فهي أمامي لا يفصلني عنها شيء أردت الحديث أكثر من مرة لكني لم استطع لقد رُبط لساني فقط اكتفيت برفع عيني لأراها وهي منزلة رأسها من خجلها ترفع عينها للحظة وتنزلها ، قاطع أفكاري دخول مازن

- اعذراني هل تأخرت عليكم .

ودخلت صفية بعده مباشرة حاملة القهوة معها وقدمتها بحفاوة ونظرت في عيني وقالت :

- تفضل يا مختار .

- تفضلي عزيزتي وأنت يا زوجي العزيز فنجانك .

جلسنا نرتشف قهوتنا وفتحنا أحاديث مختلفة أنا ومازن وحتى صفية أما سلمى فلم تتطرق لشيء حتى سألتها صفية عن رأيها في بعض المناقشات لكنها لم تتكلم إلا

بكلمات قليلة كقولها : يمكن أو جائز أو ربما ، كنت أتمنى أن استمتع بكلماتها لكنها حرمتني تلك المتعة وبقيت على حالها حتى استأذنت للذهاب فقامت معها صفية مودعة لها بعد أن احتضنتها عند الباب فقالت وهي باسمة :

- الشقية سلمى إنها مرحة ولكن لما سكتت بتلك الطريقة لست أعلم أظنها قد خجلت منك يا مختار فرد عليها مازن مداعباً :

- أنتم النساء هكذا بين بعضكن لا يكاد يدخل لسانكن إلى مكانه أما إذا صادفتم أحداً تسكتون .

غمرته بعينيها وضيقتهما قليلاً ثم فتحتهما :

- ماذا تقصد نحن كثيرات كلام أليس كذلك ؟

أجابها مكملاً مداعباته :

- لم أقل هذا أنت قلتها .

ختم كلامه بضحكة عالية حتى أنا ضحكت من مناقشاته هو وصفية ، وسألت صفية وأنا أخفي غايتي

من سؤالي :

- كيف تعرفت بسلمى ؟.

قالت ولا زالت باسمة :

- إنها قريبتي يا مختار وأنا أعرفها وأهلها لكن زياراتنا لبعضنا قليلة نوعاً ما وقد جاءت مصادفة إلى حينا فمرت علي إنما أنا سعيدة لزيارتها .

قلت في نفسي أنا من سعد بهذه الزيارة أكثر من أي شخص في العالم .

هززت برأسي وهممت بالنهوض مستأذناً منهما وشرعت في الخروج مودعاً لهما .

خرجت أسير باتجاه بيتي وقدماي تسوقني بهدوء وذهني منشغل بتلك المصادفة كيف حدث والتقيت بتلك الفتاة ؟

هل يريد القدر أن يجمعنا ؟

اسمها سلمى إنها أول مرة أعرف فيها اسمها يا لهذه

المصادفة ، كنت أسير شاردا حتى وصلت إلى البيت سلمت على والدتي ودخلت غرفتي وساوس كبيرة تأخذني يساراً ويميناً وأفكاراً من هنا وهناك وكلما أغمضت عيني أراها ، كلما تذكرت ابتسامتها ابتسمت بيني وبين نفسي بل زادت ابتسامتي إلى قهقهة حين تذكرت ضحكتها على كلمات مازن ومداعبته لصفية .

كانت ليلة طويلة لكنها الأجمل من ليالي عمري حتى تلك اللحظة .

توالت الأيام يوماً بعد يوم ، كانت تتسابق تباعاً متراقصة مسارعة تمشي على دقات الموسيقى وأصبحت التقي بسلمى بقصدها أو بغير قصدها لأنها كانت تتردد على بيت مازن بخاصة بعد أن أنجبت صفية ولدها الأول وكانت بنتاً بريئة جميلة أسماها مازن ملك .

كنت قد أخبرت مازن بأن سلمى هي الفتاة التي تعلق بها قلبي فأراد مساعدتي للقائي بها كذلك أخبر صفية فزادت بدعوتها لزيارتهم وفي يوم كنا جالسين في الصالون فدق جرس الباب .

غمزت صفية لمازن بأن يفتح الباب لأنَّها كانت ترضع صغيرتها ، فقام مازن بابتسامة خبيثة كأنه يعرف من في الباب وحين فتح كانت سلمى فقال مرحباً :

- أهلا يا سلمى لقد غبت كثيراً لما كل هذا الجفاء وسحبها من يدها وأدخلها .

دخلت سلمى برونقها يسبقها عطرها المميز بفستان كستنائي بديع تسبق خطواتها ابتسامتها ، حضنت

صفية وقبلت الطفل ونظرت إلي بعينيها مسلمة ثم جلست وعينيها المجلة لا زالت ترمقني ، فنظر مازن إلى صفية للحظة ثم غمزها فنهضت معتذرة من سلمى

- حبيبتي دقائق وأعود أريد أن أنيم ملك .

نهضت ونهض بعدها بدقيقة مازن بعد أن غمزني بعينه وقد فهمت أنه وصفيه من سعيا لاجتماعي بسلمى .

ران صمت لطيف على المكان فلم يسبق أن بقينا لوحدنا كنا دائماً نتبادل الحديث وأحيانا الجدال ولكن معنا صفية ومازن أما الآن فنحن لوحدنا وأضن أني لم أعد أستطع الاحتمال كان لا بد من الكلام فاستجمعت قواي وبادرتها قائلاً :

- ما أخبارك يا سلمى .

فردت بهدوء وعينها على الأرض :

- بخير يا مختار كيف حالك أنت ؟

صمت للحظة واستجمعت قواي وأكملت :

- سلمى أريد أن أحدثك في موضوع .

نظرت في عيني وقالت :

- تفضل يا مختار هل هناك مشكلة ؟

كانت من نظرتها لي تشعرني بالقوة أحسست أنها تقول لي تكلم يا جبان لما كل هذا الخوف؟

شعرت لحظتها بأنفاسي وبدأ العرق ينزل من جبيني

كل هذا يا مختار يفعله الحب ؟

معركة هي لا شك ولكن كان يجب الخوض بها .

نظرت مباشرة لعينيها وقلت :

- عزيزتي سلمى سأكون صريحاً معك إلى أبعد الحدود ، بل سأصف لك ما كانت عليه حالي قبل أن أراكي وما آلت إليه الآن بعد تعرفي بك .

نظرت إلي مشيرة إلي بأن أكمل فأكملت :

- كنت قبل أن أرى وجهك الجميل فتى غراً لا أعرف من الدنيا أي شيء ، أعيش مع أهلي البسطاء ولا يشوب تفكيري إلا صدى لأحلام كبيرة أحيا بها أحلام ربما هي مجرد أوهام يعيشها كل إنسان فكل منا

يبني حياته على أحلام وطموحات تكون في بداية الطفولة هوايات ثم تكبر شيئا فشيئا لتصبح أحلام نبني عليها أهداف حياتنا ، والغاية القصوى من كل تلك الأحلام والطموحات هو الوصول إلى السعادة لكني لم أكن أحس لأي شكل من أشكال السعادة ولا أي معنى للوصول إليها ، ولا إن كانت السعادة موجودة فعلاً أ لا ، لكني حين رأيتك أول مرة أحسست بنبضٍ يدق قلبي وابتهاج يجتاح كياني وصارت أيامي تسير متراقصة مع زقزقة العصافير أدركت حينها أني امتلكت السعادة ، أدركت السعادة بجميع معناها وأدركت أنك أنت سعادتي سكتُ بعدها انتظر رد فعلها ففاجأتني بابتسامتها الخجلة وقالت :

- قد أخجلتني بكلامك يا مختار فلم أتوقع منك كل هذه الجرأة ولا حتى كل تلك المشاعر ، لست أدر ماذا أجيبك ؟

زادت جرأتي وكأن لساني قد حلت عقدته

- وهل تحسبين أن من يراك سيبقى بلا مشاعر ؟

أنت لا تعلمي ماذا فعلت بي ؟

حين رأيتك أول مرة شعرت بأني أعرفك منذ عهد وزمن طويل وأن روحي قد عاشت ملازمة لروحك عمراً كاملاً و لولا إني لا أؤمن بانتقال الأرواح لقلت إن روحينا قد عاشا حياة قبل هذه الحياة ، ولكنها روح واحدة وحياة واحدة هذه التي نعيشها وأحسبك أنت روحي ، أنت يا سلمى الروح الوحيدة التي كنت أبحث عنها طيلة حياتي وبعد تكرار المصادفات التي كنت أراك فيها بقصد أو بغير قصد زاد شعوري بقرب روحك من روحي وأصبحت أتقصد العبور في الشارع الذي يمر بجوار منزلكم حتى أراك بل كنت أتقصد الذهاب إلى أماكن كنت أتوقع رؤيتك فيها حتى إني أصبحت من غير أن أشعر أمر أمام منزلكم في الصباح وأنا ذاهب إلى المدرسة وفي الظهيرة بعد

عودتي ، أصبحت حين أراك اشعر أني امتلكت سعادة الدنيا ويتراقص قلبي فرحاً ، إن كانت إلا لحظات وتغيبي عن ناظري لكنها كإكسير الحياة مغذي للجسد اقتاد به كل يوم ؛ أما حين لا يحالفني الحظ ولا أراك أعود أدراجي إلى البيت حزيناً متعباً و منهكاً تثاقل على كاهلي هموم الدنيا .

سألت نفسي مرات ومرات ما هذا الشعور يا مختار إنه الحب يا سلمى الحب والحب وحده من يفعل ذلك ، لن أطيل عليك بكلامي أكثر وأرجو أن تسامحي صراحتي لكنه بركان قلبي و لم أعد اقدر على إخماده واقسم لك إني لم أكذب عليك بحرف واحد وأني أحببتك من أول مرة رأيتك فيها فإن ترحمت على قلبي فسأعطيك حبي وحياتي وروحي ، فترددت بعدها وقلت أما إن رفضت فلن ألومك ولن أعاتبك لك الخيار تختارِ حبي وترحميني من عذابي أو تحكمي على قلبي بالموت وروحي بالزوال .

سكتُّ وشعرت بأن جبلاً قد أزيح عن كاهلي لكن الجبل الأكبر هو انتظاري لردها فقد بدا عليها الهدوء والصدمة فترددت قليلاً بعد أن وضعت عينها في عيني وقالت :

- لست أدري يا مختار ماذا أقول ، أو كيف سأجيبك ؟

لأنك تطلب أمراً لست قادرة على الدخول فيه ، فأنا لا أعرفك كثيراً ونحن لم نلتقي إلا مرات قليلة ولا أضنها كافية حتى نعرف بعضنا ثم إنك لا تعرفني وأنا استغرب مشاعرك وكلامك عن كل هذا السيل من المشاعر دون أن نلتقي أو نتحدث .

قد تغشك عيناك لا تنظر إلى جمال القشور يا مختار ربما كانت خادعة ابحث عن الجوهر ، الزينة الجميلة قد تخفي قبحاً عظيماً، البشر أمام عينك قشور وخلف تلك القشور جوهر لن تعرفه إلا بعد الاختلاط والمعاشرة ، البشر يتزينون ، يلبسون أقنعة نظيفة

وخلف تلك الأقنعة قد تكون هناك عقول مختلفة .

نحن لم نلتق يا مختار و قد لا أكون مناسبة لك .

قد وقد تكون هناك الكثير من الفوارق ، لا نستطيع الجزم من مرة أو مرتي لقاء .

قاطعتها وأنا أدرك ماذا تفكر وقلت :

- اعرف هذا ولكني أحببتك ولم اعد قادراً على كتمان حبي فالأرواح هي التي تعشق يا سلمى ليست الأجساد ، هناك من الحب الكثير من الأنواع أصدقها حبُّ النظرة الأولى فهو حبُّ الأرواح وأنا قد وقعت فيه .

ردت علي وقد احمرَّ وجهها خجلاً :

- لن استطيع الجواب الآن يا مختار لكني سأفكر بكلامك لأني تأخرت كثيراً ويجب أن أعود إلى البيت .

وقفت تهم بالمغادرة عندها دخلت صفية يجاورها مازن تحمل القهوة معتذرة عن تأخيرها فقالت :

- اعذراني تأخرنا عليكم ونظرت إلى سلمى قائلة :

- أين تذهبي اشربي قهوتك أولاً .

ردت سلمى بهدوء :

- اعتذر لقد تأخرت لن استطيع شرب القهوة معكم

أجاب مازن بعد أن مسك يدها وأجلسها :

- لا لن تذهبي دون شربك القهوة .

جلسنا نرتشف القهوة وعيني ما زالت تتفحص بين الحين والأخرى معالم سلمى التي لا زال يشوبها الهدوء والسكينة .

بعد لحظات استأذنت وغادرت ، وهممت بالمغادرة أيضاً فغمزني مازن بنظرة وقال :

- هل انقضى الأمر يا صديقي أم خيبت ضني ؟

أجبته وأنا حقاً لا أعرف ما الجواب :

- ربما .

غادرت مازن خارجاً من بيته وأنا شبه طائر ، فمن جهة كنت سعيداً جداً لأني التقيت بسلمى و جهة

أخرى كنت خائفاً وجلاً فهي لم توافق على حبي أو إنها لم تعطني جوابا شافيا لروحي .

دخلت البيت وأنا ارسم بسمة بسيطة على شفتي وسلمت على أمي وأبي اللذان كانا يجلسان في ساحة البيت يشربان الشاي ويتسامران .

حين رأيتهما ابتسمت داخلي متخيلا نفسي أنا وسلمى بعد كبر العمر وانقضاء أيامه نجلس جلستهما ، فلا زالا رغم كبر سنهما يعيشان حبهما الكبير الذي تكلل بالزواج .

تقدمت بخطواتي متجها إلى غرفتي فاستوقفني نداء أم مختار بابتسامتها : - عين أمك يا مختار أين كنت أقلقتني عليك ألن تشرب الشاي معنا .

نظرت إليها بابتسامة حانية وقلت :

- بلا يا أم مختار سآتي بعد ثوان فقط أريد أن أغسل وجهي .

أبدلت ملابسي وجلست بجانبها وهي فرحة تضحك

على كلمات والدي ، كان يحكي لها عن صديقه أبو خليل وكيف أنه أضاع منه صيد الأرنب .

قالت ولا زالت ضاحكة :

- تعال يا مختار واسمع حكاية أباك .

هذا الرجل رغم كبر سنه لا زال يسعدني بحديثه وربتت على يده ممتنة كأنها تخبره كم هي سعيدة بوجوده في حياتها .

التفتت تجاهي وسألتني :

- ما بالي أراك شارد الذهن هذه الأيام يا ولدي ؟

أجبتها دون النظر إليها ، فأنا أعرف أنها تعرف صدق كلامي من كذبه من نظرة واحدة :

- لا شيء يذكر يا أم مختار فقط دراسة وضغط في الوظائف .

رد والدي بقليل من الجدية :

- دعيه وشأنه يا أم مختار إنه شاب في بداية حياته لا يجب أن تتدخلي فيها .

قطبت حاجبيها ونظرت إليه وقالت :

- أنا أمه ومن حقي وواجبي أن أطمئن عليه نحن الأمهات لا يستطيب لنا العيش دون راحة أبنائنا .

ابتسم والدي وأجابها :

- فقط راحة أولادكم ؟

أما الزوج رحمه الله مع الموتى .

ضحكت ضحكاً شديداً من كلامه وردت :

- يا رجل لا تستطيع أن تنسى مشاكساتك لقد كبرت عليها يا أبا مختار أما آن لك أن تكبر وتشيخ .

ضحك بدوره وقال :

- كبير ؟

وهل أخبروك بأني في التسعين من عمري ؟

لم يصل عمري للخمسين بقي عام حتى أكمل الخمسين ومن ثم إن الشباب شباب الروح والقلب يا أم مختار وأنا قلبي شباب وروحي أيضاً أم نسيتي ؟

- لا يا عزيزي لم أنسا أداعبك فحسب لا تحمل

كلامي محمل الجد .

نظرت إلي بحنان بعد أن سكبت كأساً من الشاي وقالت :

- تفضل يا حبيبي اشرب كأسك و سألني والدي بجدية :

- قل لي يا مختار كيف هي دراستك ؟

أتمنى أن لا تخذلنا .

- أنت تعرفني يا والدي فأنا ولدك ولن أخيب ضنك إن شاء الله وكما كنت سأبقى من الأوائل .

- إن شاء الله يا بني فأملنا بالله أولاً ثم فيك .

نهضت من مكاني بعد انتهائي من كأس الشاي وأنا شارد الذهن لست مع والداي فقط بجسدي أما فكري وروحي فكانا في مكان أخر .

قالت أم مختار :

- أين يا عين أمك ألن تشرب كأسا ثانية .

أجبتها وأنا مغادر :

- لا يا أمي أريد أن أرتاح قليلا ثم إن لدي دراسة في الليل أم تريدي أن أخيب ضن أبا مختار ، قبلتها ودخلت غرفتي .

مضى ذلك اليوم وتلك الليلة الطويلة وقد أصابني الأرق ولم استطع النوم كلما أردت الاستلقاء على تختي تباغتني صورتها جلية جميلة براقة ابتسم بيني وبين نفسي لكن يشوبها القلق والخوف من فقدان تلك الصورة وفقدان سلمى .

بقيت طيلة الليل بين ساهر حالم وبين خائف مرتعب من الفقدان .

مضت الليلة ومضى اليوم الذي يليه وأيام أخرى ولم استطع الالتقاء بسلمى وكلما حاولت اللقاء بها لم أفلح حتى انتابني القلق وأحسست بعدم رغبتها للقائي أو أنها لن توافق .

حتى جاء يوم كنت قد دخلت فيه إلى بيت مازن وقد فوجئت بوجودها جالسة بجانب صفية ولم استطع

يومها الانتظار لحظة واحدة وبعد أقل من دقيقة من جلوسي قلت لمازن هامساً :

- هلا خرجت أنت زوجتك حتى اكلمها ؟

نظر إلي مازن نضرة كنت أعرفها وقال باسماً لصفية :

- حبيبتي تعالي أريدك في أمر ولندع العاشقان لوحدهما.

نظرت صفية إلي وكأنها شعرت بالبركان الذي يدور في صدري وقالت :

- وهل أصبحا في قفص العشق أم لا ؟.

أمسكت بيد مازن باسمة وخرجا من الصالون يداعبان بعضهما .

يا لهما من عاشقين لم أرى في حياتي زوجان سعيدان مثلهما قلت لسلمى وأنا أحدق بهما .

ردت مؤيدة بابتسامة نعم معك حك .

نظرت إليها والشوق واللهفة يسيطران على نظراتي وقلت بلهفة :

- كيف حالك يا سلمى قد شغل فكري عليك وحسبت أمراً خطيراً قد أصابك .

قطبت حاجبيها وقالت :

- أنا استغرب لكلامك إنك تتحدث كأننا عاشقين أو ربما كنا متزوجين منذ سنين انتبه إلى نفسك .

ترددت قليلا بسبب جوابها وأسلوبها بالكلام وقلت :

- أنا حقاً أشعر بأننا خلقنا لبعضنا منذ أن رأيتك أول مرة .

ردت بجدية بادية على وجهها :

- لكني لم أوافق على كلامك ولا على الحب الذي تتحدث عنه .

احمر وجهي وصعد الدم إلى رأسي وقلت بشيء من التوتر :

- لكنك أخبرتني أنك ستفكرين في الأمر .

- وقد فكرت ولكن .

- لكن ماذا يا سلمى ؟

هل ترفضين حبي لك ؟

ألا تشعري كما اشعر ؟

أكانت نظراتك لي وهم بوهم أم كنتِ تخدعي قلبي بنظرتك ؟

سكتت سلمى مفكرة بكلامي وشعرتُ أنها تريد أن تلملم شتات أفكارها المبعثرة ثم نظرت في عيني مباشرة وقالت :

- لا تسئ فهمي يا مختار فصحيح أن ما قلته عن الحب جميل ، وسأعترف لك إني لم اسمع مثل هذا الكلام من قبل ولم يرق قلبي يوماً لسماع مثله والشعور الذي تشعر به جدٌّ عظيم ولست وحدك من تشعر به .

ازدرقت ريقها وأكملت بتردد :

- سأصارحك أنا أيضا أشعر به .

قاطعتها والدم أصبح يسير في عروقي وقلت :

- إذا لما هذا الخوف والتردد الذي ألمحه في عينيك .

سكتت لحظة و ازدرقت ريقها محاولة إطلاق صراح

الكلمات الحبيسة في خلجات قلبها وقالت :

- تعذبت كعذابك يا مختار وأحببت الإبحار في عينيك الواسعتين مرات كثيرة ، كنت سعيدة كل السعادة حين أحسست بدفء نظراتك وبحبك لي فنحن النساء وكما تقول لي أمي دائماً أشد إدراكاً لنظرات الرجل ونستطيع أن نعرف ماذا يفكر بمجرد النظرة الأولى وهذا ما حدث .

قد شعرت بك وبحبك من أول وهلة ومن أول نظرة التقت فيها عيني بعينك لكني كنت أخفي تلك المعرفة وتلك النظرة عن أمي أولا التي قد لاحظت تغيري وعنك ثانياً وهذا سبب ما لاحظته من تجاهل لنظراتك .

لكني كنت أحياناً أضعف أمام عواطفي ومشاعري وكانت تفضحني عيناي وأنظر إليك ناسية نفسي .

صمتت سلمى والشرود بان في عينيها ودار بفكري ما حدثت مازن به يوماً حين تذمرت لتصرفاتها وسألته

كيف تستطيع المرأة أن توهم الرجل بحبها ثم تتجاهله وهل النساء بطبعهن كالحرباء تتلون كيفما اقتضت الحاجة .

ضحك يومها مازن من تشبيهي فقلت لها :

- أكملي فكم يسعدني الاستماع إلى حديثك ويطرب نبضي لكلماتك فكلما تحدثت شعرت بقرب المسافة لأفكاري بأفكارك و مشاعري بمشاعرك .

احمر وجهها خجلاً وقالت :

- لطالما كنت أراك من بعيد وأراقب خطواتك الباحثة اللاهثة ، كنت أعلم انك تبحث عني وكنت أضحك في سري واعرف أنك تأتي من أجلي ولكم أحببت تلك اللحظات وكنت أنتظرها كل يوم واعد الدقائق والثواني لتمر أمام بيتنا ، و أهنئ عيني بالنظر إليك وإن كانت نظراتي خفية من خلف الستائر .

أحيانا كثيرة كنت أتقصد الخروج إلى الحديقة منتظرة مرورك بجواري اشغل نفسي بأية حجة واهية المهم أن

أراك ، وحين لم تكن تأتي ألوم نفسي وأعنفها أشدَّ تعنيف ، أحدثها خائفة أنك قد مللت القدوم أو انك سأمت وتعبت من ملاحقتي .

لكم تمنيت أن أكون كتابا من كتبك التي تحملها بيدك حتى أهنئ نفسي بلمسة يدك .

مراراً وتكراراً أحلم بأن أكون بقربك يوماً لكن دائماً ما أتراجع وأقول لنفسي أين أنت منه ؟.

هذا الأمر مستحيل يا مختار اعذرني ولكنه أمر مستحيل .

ولاحت في عينيها دمعة حبيسة تكاد تشرق على مشارف خدها فبادرتها مسابقاً الزمن لحبس تلك الدمعة وإرجاعها إلى ديارها الدافئة في عينيها الجميلتين

- اهدئي يا سلمى فما من فرق بيني وبينك نحن من بيئة واحدة وبلد واحد وحياتنا واحدة ولا فرق بيني وبينك أبداً ومن ثم فإن الحب يبدد المستحيل ويزيل كل الفوارق .

فابتسمت ابتسامة هزيلة مصطنعة وقالت :

- لا تبالغ يا مختار فأنت تعرف أننا نختلف كل الاختلاف وأضن أنك تعلم عني كل شيء فقد أخبرتني صفية بتفاصيل معرفتك بي بأمور حتى أنا أجهلها عن نفسي .

أنت تعرف أني لم أكمل دراستي وكم تألمت من ذلك أهلي على الرغم من غناهم وقدرتهم المالية فإنهم قد حرموني حق التعليم .

- حقا يا سلمى قد سألت نفسي ذلك السؤال لما لم يسمح أهلك بإكمال دراستك وهم ميسوري الحال ؟

- إن أهلي يا مختار وبكل أسف من الطبقة الارستقراطية الغنية ووالدي تفكيره كلاسيكي قديم ورغم محاولات والدتي منه أن يجعلني أكمل دراستي إلا أنه لم يسمح بذلك وأذكر كلامه حين قال :

- ليس لدينا نساء للدراسة ولسنا بحاجة للعلم والتعليم المرأة في عائلتنا فقط للزواج وتربية الأولاد .

- إنَّها عبودية وهل خلقت المرأة فقط للزواج والأولاد ؟

ضحكت من كلماتي وقالت :

- إن والدي يا مختار أكبر أخوته وأكثرهم سلطة عليهم وهذا القانون قد أسري على جميع أفراد العائلة أما أمي فلا حول لها ولا قوة ولا تستطيع أن تقف أمام والدي وتعارضه في أي أمر حتى وإن كان خاطئاً .

لديَّ أخي الأكبر مسعود قد تزوج وخرج من البيت ساكناً بيتاً مع زوجته ولا يتدخل في أمرنا بشيء وهو نسخة طبق الأصل عن والدي ، أما أخي الآخر سامر وأضن أنك تعرفه فما زال طالباً يدرس بنفس المدرسة التي تدرس فيها .

هززت برأسي مؤيداً لكلامها بمعرفتي به ليس لأنه يدرس في نفس المدرسة إنما لأنه أخاها وقربه يشعرني بقربها فأكملت قائلة :

- على الرغم من محبة سامر لي إلا أنه لم يستطع إقناع والدي ليسمح لي باستكمال تعليمي .

أخيراً لدي أختي الصغيرة سمر وهي تصغرني سناً ولا زالت في المرحلة الإعدادية وسيسري عليها القانون ذاته وتحرم من حقها في التعليم هززت برأسي آسفاً على مأساتها فأكبر مأساة للإنسان رجلاً كان أو امرأة طفلاً كان أو كهلاً هو الجهل والحرمان من العلم و التعلم و لأيِّ سبب ؟

بسبب جهل رب الأسرة رغم كبره ومكانته الاجتماعية .

- حسنا يا سلمى إنها أمور لا أحسبها صغيرة لكن لم تقولي سبب رفضك لي حتى الآن .

- ما بك يا مختار ؟

بعد كل ما حدثتك به تسأل عن سبب رفضي ؟

أنت لم تفهم ما أنا فيه ، كل هذه الأسباب جعلتني في الكثير من الأحيان ابتعد عنك وأشيح بتفكيري

عن حبك ، بل إني في الكثير من الأحيان كنت أقرر نسيانك لكني لم استطع حتى اللحظة ، ومع هذا فلا بد من النسيان ننسى اليوم قبل أن نذوق عذاب أيام ستنسينا .

قالتها وقد هربت دمعتها من عينها ، تلك الدمعة آثرت حتى تخرج ، قد حاولت أن أطيل حجزها لكنها أبت فنهضت ململمة شتات أفكارها وخرجت مسرعة من بيت مازن وأنا لا زلت جالساً مكاني مذهول من هول الصدمة لست أعي ماذا حدث وهل وافقت أم لا .

كيف يمكن للمرء أن يولد ويموت في نفس اللحظة ؟

ماذا فعلت بي يا سلمى ؟

تعترفين بحبك وتطالبيني بالنسيان .

وهل يولد المرء في هذه الحياة إلا مرة واحدة .

لحظة قد مرت بي كأنها زمن ودهر وشهور .

تطالبني بالنسيان ، كيف أنساك وقد وجدتك بعد صبر عمر ودهر وشتات روح بين الأرواح .

دخلت صفية مقاطعة أفكاري ومازن خلفها وقد لاحظا شحوبي وذهولي واحتقان الدم في وجهي فوضع مازن يده على كتفي وقال :

- ما الذي حدث يا مختار ولما خرجت سلمى بهذه الطريقة ؟

هززت برأسي دون أن أجيب وهممت بالذهاب وأنا لا زلت بغير وعيي فأكمل مازن أسألته :

- ما بك ؟

ألن تخبرني ؟

أسئلة كثيرة سمعت أطيافها يرددها مازن دون أن أجيب بكلمة واحدة فاعتذرت منهم وغادرت .

أسير في الشارع وحيداً تائهاً ضائعاً ، لم أهنئ لحظة واحدة .

إحساس بالضياع يلفني .

أهذا هو الحب ؟

لا بارك الله في هكذا حب .

حقاً كما ضننت الحبَّ عذاب وليس هناك بغير العذاب .

قد دمرتني يا سلمى قبل أن ألتقي بك .

مرت الأيام تباعاً وأنا بتأخر كبير في دراستي وواجباتي المدرسية ، حتى في البيت قد تأخرت كثيراً وقصرت في الكثير من الأعمال .

كلما حاولت اللقاء بسلمى اعتذرت وامتنعت ولم تجب عن اتصالاتي أو اتصالات صفية المتكررة ، أضنها قد قررت النسيان كما أخبرتني .

أتستطيعين النسيان ؟

غريبة هي تلك الفتاة قد أرهقت فكيري .

بين الفينة والأخرى كنت أمر على بيت مازن علي أصادف وجودها هناك لكنها لم تحضر طيلة ستة شهور حتى حسبت نفسي أني فقدتها للأبد ليتني فقدتها من تلك اللحظة ولم يحدث ما حدث .

قد شاءت الأقدار أن التقينا فقد التقيت بها بعد ستة

أشهر في بيت مازن حين جاءت هناك ولست أدري أكانت مصادفة أم أنها قد اشتاقت للقائي أحسبها مصادفة فمن يشتاق لا يعذب شخصاً أحبه .

طرقت الباب يومها ففتحت لي صفية وقالت بابتسامتها المعتادة – أهلا يا مختار قد جئت في وقتك .

وأشارت لي بعينيها خلفها نظرت و وجدت سلمى جالسة شاردة تعلقت عينيها في السقف .

دخلت والدماء بدأت تسري في عروقي كأن اليوم أول يوم لي بلقائها اقتربت منها وقد التفتت إلي ووقفت بوجهي فمددت يدي إليها مسلماً صافحتني بحفاوة .

شعرت أن هناك شيء قد تغير فليست هي سلمى التي غادرتن أخر مرة منذ ستة شهور ، ستة شهور مضت دون أن تسأل للحظة عني بل دون أن تجيب على اتصالاتي ولا سؤالي عنها فما الذي تغير .

نظرت في عيني وقالت :

- مختار تفضل كنت انتظرك .

فتحت عيني وأغلقتها نصف إغلاق وقلت :

- تنتظريني ؟!

أحقاً ما اسمعه ؟

أنت التي خرجت من هنا منذ ستة أشهر ولم تسألي عني في أي يوم .

أنت التي طالبتني بنسيانك ونسيتني .

قد وضعتني في بئر وخرجت منه يا سلمى ، قد نسيتني وأنسيتني نفسي والآن تقولين لي انتظرك .

أنا الذي انتظرتك وانتظرتك طويلاً مراراً وتكراراً لكن دون جدوى ، ما الجديد الآن أخبريني ما الجديد ؟

سكتُّ والدماء قد شعرت بها تتدفق إلى رأسي واشتعل قلبي حرقة فبرغم محبتي لها إلا إني كنت أشعر بالغضب والغليان منها .

نظرت إلي بحياء وارتباك وانكسار وكأن بها تقول لي أشعر بك .

ردت بعد لحظة :

- أعلم انك منفعل يا مختار وأعلم أني قد أخطأت بحقك ربما قد قسوت عليك وعاملتك بجفاء لكن كن أنت مكاني .

أخبرتك يا مختار عن وضعي وعن عائلتي وحياتي .

أنا أحببتك لكني لا أستطيع .

حاولت أن أقاطعها فمدت يدها نحوي وقالت :

- دعني أكمل .

هززت رأسي مؤيداً فقالت :

- حاولت أن أنساك لكنك في داخلي .

تجاهلتك مراراً وتكراراً وتجاهلت اتصالاتك لكني كنت أنام الليل بطوله وأنا ابكي على مخدتي .

لم تكن تمرُّ علي تلك الأيام كما تمر على أي شخص .

أنا الملامة ، أنا من طلبت النسيان لكني لم استطع

ذلك ، لكم تعذبت وتألمت حين كنت أراك تمر من أمام بيتنا تتفحص بعينيك لتراني وكلما أردت أن أخرج لألمحك تمنعني نفسي ويمنعني خوفي وأتراجع .

مضى يوم ويومين وربما شهر وشهرين وأنت في مخيلتي لا تفارقني لحظة واحدة ، هكذا حتى اليوم .

ربما تلومني ولكني خائفة وخائفة جداً وليس خوفي على نفسي فحسب إنما عليك أيضاً فقاطعتها هذه المرة وقلت :

- النسيان ؟!

ولما النسيان يا سلمى ؟

أنا أستغرب لكلامك بعد كل هذا الكلام تريدين أن أنسا ، أمرك غريب .

- أخبرتك يا مختار أن والدي عصبي متزمت برأيه فرغم محبته لنا ورغم عطفه علينا إلا أنه لن يسمح لي بحبك ، بل إنه لن يكتفي بمنعي عنك سوف يقتلني وربما يقتلك .

أنت لا تريدني أن أنسا لكن كيف لي أن أحبك وأنا لدي ما لدي من مشاكل لا أريد أن أقحمك فيها .

أمسكت بيدها والإصرار باد في عيني :

- سلمى عزيزتي ألا تعلمي أنَّ الحبَّ قد مزق قلوبا كالصخر .

ألا تشعري أن الزمان قد تغير والحب قد أصبح السيد في كل مكان ومن ثم هل يحق لك أن تحرمي قلبينا من عاطفتهما .

أنت قلتها حاولت أن تنسي ولم تستطيعي فلا تعذبي قلبك وقلبي .

سحبت يدها من بين أصابعي وقالت :

- يمكنك يا مختار أن تحب وتهوى غيري ما لك ولي ؟ ولما تقحم نفسك بمشاكل أنت بغنى عنها ؟

أنت شاب ومثقف ووسيم ويمكنك أن تحب أجمل فتاة في المدينة أما أنا مقيدة في زنزانة العادات القديمة لا يصلني حتى ضوء شمس الحرية دخلت صفية في

لحظتها محضرة القهوة وغمزتن دون أن تتكلم .

وضعت قهوتها وخرجت بهدوء فقلت :

- كم تعجبني هذه المرأة إنها ومازن قد أصبحا عائلتي الثانية .

هزت رأسها مؤيدة فقلت :

- سلمى تحدثت بما فيه الكفاية ولو تحدثت إلى الأبد لن أغير مشاعري ونبض قلبي فلا زلت مصراً على حبي لك .

لست من الأشخاص الذين يخافون من مجابهة ألمصاعب ولا أنا من الناس الجبناء .

ولست مقتنعاً بوجود مثل تلك الأشخاص في زماننا مثل ما وصفت عائلتك الفتاة عند أهلها أميرة وليست عبده .

من خاف الشيء لن يسير ومن لم يسر لن يصل وأنا مصر عليك ولست أريد غيرك في حياتي .

أدمعت عينها وقالت :

- لكن يا مختار أنا خائفة .

أمسكت بيدها من جديد وقلت :

- عزيزتي سلمى لا تخافي فأنا معك إن الإنسان يخاف إذا فعل أمراً خاطئاً ولا احسبنا قد أخطأنا بشيء .

إنه الحب ،وهو سلطان لا يقدر عليه احد ثمَّ متى كان جريمة نحاسب عليها .

أحلفك بكل ما هو غال عليك بألا تقتلي محبتي ، لا تحرميني حياتي وروحي ، قولي أنك لا تحبيني لكن لا تطالبيني بنسيانك قول ما شئت لكن لا تطالبي بنسيانك ، لن أفعل بل لن أقدر على النسيان .

سكت وعيني في عينها منتظراً جوابها وأنا أعرف أنها تحبني لكنها تكابر قالت :

- حسنا يا مختار سأكون معك ، أنا أيضاً لم أستطع نسيانك رغم محاولاتي الكثيرة ، لكن لي طلب وحيد

هززت برأسي معلناً عن موافقتي كل طلباتها فأكملت :

- أريدك أن تعاهدني أمام الله أنك لن تتخلى عني مهما

حدث وأنك ستكون لي عوناً على كل الظروف .
هناك أمر آخر فلا أريدك أن تسعى لمقابلتي كي لا يعلم أحد بحبنا إن علم أهلي بحبنا لا أعلم ماذا سيحدث .
ضحكت في سري من كلامها وقلبي بات فرحاً كطائر السنونو بقدوم الربيع وقلت والفرح قد بان على وجهي:
- لك ذلك يا سلمى لكني لا بد أن أطمئن عليك بين الحين والآخر .
فغمرتني بنظرة كدت أشعر بنبضات قلبها تخاطبني ممتنة محبة وقالت :
- لندع لقائنا على الأيام وسأحاول أن أتي هنا عند صفية كل فترة ربما في الأسبوع مرة فهي قريبتنا ولن يشك أحد من قدومي إليها هذا فيه من السلامة لنا الكثير .
قبل أن تنهي كلامها رن جرس الباب وفتحت صفية فكان مازن قد عاد من دوامه في المدرسة رحب بنا فرحاً وقال وهو يغمر سلمى بنظرته معاتباً :

- لم أكن أحسب أني سأجدكما أنتما الاثنين هنا بخاصة بعد القطيعة الكبيرة من صديقتنا وقريبتنا سلمى .

ابتسمت سلمى وقالت :

- إنما هي الظروف يا قريبي وغمزت صفية التي أمسكت ذراع مازن وقالت :

- مازن حبيبي تعال اجلس .

جلسنا بعدها نتسامر ونضحك ثم استأذنت سلمى وخرجت معها صفية توصلها إلى بيتها .

غمزني مازن وقال هامسا :

- أخبرني هل وافقت ؟

هززت رأسي وأنا أكاد أطير فرحا وقلت :

- نعم يا صديقي بعد جهد جهيد قد وافقت أضنها ستتعبني ، إنها جبانة تخاف من كل شيء .

رشف رشفة من كأس الشاي الذي أحظرته صفية وقال :

- كل العلاقات تبدأ بالخوف يا مختار فلا تلمها إنها

فتاة والمرأة في مجتمعنا لا زالت مسلوبة الحق ولا تعجبك الشعارات الرنانة التي تسمعها على التلفاز أو في قنوات التواصل الاجتماعي فلا تزال المرأة تأخذ من العبودية الشيء الكثير لكن ليس عند كل الناس ولا عند كل الرجال فكل مجتمع تختلف النظرة فيه عن مجتمع آخر ومع هذا عليك أن تتحمل فما كان سهلاً لن يكون ذا قيمة ، أما المحبة تأتي بالإصرار والاهتمام وأتمنى أن تمر أيامكما بسعادة وسرور .

إنها أيام وتمر وقد يكون والدها ليس كما وصفته لك فتخطبها وتجتمعان تحت سقف واحد وهذا هو المراد .

أمسكت بيده ممتناً على دعمه لي وقلت :

- أشكرك كل الشكر يا مازن فلولا دعمك لي لما استطعت الوصول إلى سلمى .

- لا تقل ذلك يا مختار فنحن أصدقاء فلما اسمها صداقة إذاً ؟

شكرته بامتنان وأردت الخروج إلى البيت حاول أن

يبقيني أكثر لكني أخبرته بأني تأخرت ويجب أن أغادر .

سلمى

خرجت من بيت مازن برفقتي صفية فقد أصرت أن ترافقني .

كان الوقت عصراً والسماء صافية والهدوء المخيم على المدينة أشعر به يعانق أنفاسي وأفكاري تتخبط بين جيئة وذهاب .

تلك المشاعر بدأت أشعر بها كسيل شلال لا ينتهي فما بال أفكاري وما حال نبضات قلبي التي تكاد تخرج من قفص صدري ؟

لاحظت صفية حالي فنظرت إلي بنظرة كنت أعرفها وقالت :

- أراك سعيدة يا سلمى والذهول بات واضحاً في عينيك فصبحان الله كيف دخلت إلي قبل ساعات بحال تشبه الذبيح وحالك الآن ، كل هذا يفعل الحب أم أن مختار فتى ساحر ولم أعلم ؟

فابتسمت لها بخبث ونظرت مستفزة وقلت :

- على رسلك صفية على رسلك ، حب ماذا و أي سحر الذي تتكلمي عنه ؟ أنت واهمة .

ضحكت من طريقتي في الإنكار وكذبي الفاضح فقد بان في عيني كذبهما أشاحت بوجهها عني معاتبة :

- لا تفعلي هذا بي يا سلمى فأنا أكثر شخص يعرفك ويعرف مختار وقد عانى ما عاناه في الفترة الماضية بسبب صدك له وأضن من ملامح وجهه وما أراه في وجهك الضاحك أنك قد وافقته ومنحته حبك وقلبك أليس كذلك ؟

قلت ولا زلت انظر بشيء من الخبث :

- من أخبرك أهو مازن أم مختار؟

- وهل يحتاج الأمر إلى من يخبرني نحن النساء ندرك العواطف التي تحدث بخاصة من الأصحاب والأحباب وما أنت فيه الآن من تورد خدود وابتسامة ليس له إلا معنى وحيد وهو الحب يا خبيثة .

ضحكت من احمرار وجهي وأمسكت يدي .

ابتسمت ابتسامة عريضة في وجهها وربت على يدها وأجبتها :

- بلا يا صفية لقد اتفقنا وأنا الآن أشعر بسعادة لا تعلوها سعادة وأشعر أني أطير بين السماء والأرض لا تعلمي كم أنا سعيدة ربما لن استطيع أن اعبر لك عن مدى امتناني وشكري لله ، ولكي أنت ومازن لسعيكم باجتماعنا .

لا تعلمي كم أنا فرحة ، أهذا هو الحب يا صفية أم إنه شعور عابر ولحظات زائفة ؟

هزت رأسها مؤيدة وقالت :

- بلا يا سلمى إن شعورك هذا هو أجمل شعور قد يمر على الإنسان إنه الحب ، الشعور الذي يسعى إليه كل البشر، الحب الذي هو هناء البشرية جمعاء فلولاه لما استطعنا الاستمرار في العيش .

فرحت لكلامها حقا فقد منحتني الطمأنينة وقلت :

- إن كلامك جميل واضن أنك ومازن قد عشتما الحب بكل معانيه أليس كذلك ؟

وغمزت باسمة ، هزت رأسها وقالت :

- بلا يا سلمى لقد تزوجنا بعد حب دام ثلاثة سنين وعشنا الحب بجميع لحظاته وأتمنى أن تعيشيه أنت ومختار كذلك وينتهي حبكما بالزواج الأبدي والسعادة الدائمة .

ضحكت وقبلتها وقلت :

- إن شاء الله يا عزيزتي لقد وصلنا إلى نهاية الشارع سأوقف تكسي تعال معي إلى بيتنا .

ربتت على يدي وقالت - اعذريني لا أريد التأخر عن البيت سأراك عما قريب .

قلت مؤيدة :

- حسنا سأزوركم عما قريب أوصلي سلامي لمازن .

نظرت إلي بطرف عينها وقالت :

- مازن وحده أم إن معه أحد .

ضحكت من لهجتها وقلت :

- مازن والأحد الذي معه .

وصلت إلى البيت ودخلته وأنا جد فرحة لا يعكر صفوي أي شيء قد سمعت صوت أمي في المطبخ كعادتها في هذا الوقت فقبلتها على خدها مداعبة لها وأنا اضحك :

- مرحبا يا أجمل أم في الدنيا .

نظرت إلي باسمة وقالت :

- أهلا يا عين أمك أين كنت قد قلقت عليك .

اتجهت باتجاه الطاولة لأرى ما تحتويه الأطباق من طعام وقلت دون النظر إليها :

- كنت عند قريبتنا صفية بنت الحاج إبراهيم .

أين سمر ولما لا تساعدك في الطعام .

قالت وهي تمسك الخضار بيديها لتغسلها :

- إنها في غرفتها تدرس هل نسيت أنها في مرحلة الشهادة الإعدادية وعليها أن تجتاز هذه السنة كما تعلمين

إن والدك لا يريدها أن تدرس بل كان يريد أن يحرمها من تعليمها لولا إلحاح خالك أحمد وأخاك سامر .

ساعديني في إعداد السلطة ثم اذهبي إلى غرفتك .

تناولت من يدها الخضار وبدأت بتقطيعها حتى انتهيت وذهبت إلى غرفتي ، حين دخلت كانت سمر لا زالت تدرس، كانت تشاركني الغرفة التي تحتوي على سريرين للنوم وطاولة مستديرة للدراسة وثلاثة كراسي وخزانتين واحدة لي وأخرى لها .

دخلت وأنا أتخطى بهدوء فلاحظت ذلك فابتسمت بخباثة وقالت :

- ما هذه الحركات يا عزيزتي الغالية كل هذا تخافين على دراستي .

غمزتن فضحكت لكلامها بشدة تقدمت عليها فضممتها وقلت

- أنت أغلا عندي من كل الدنيا يا شقية .

قرصتها من خدها وقلت :

- أكملي دراستك يا حبيبتي فيجب أن تثبتي لأبيك أنك تستحقين النجاح .

يجب أن تكسري القاعدة السائدة في العائلة وتكسري القيود المفروضة .

نظرت إلي متشككة وقالت :

- سأفعل ، سأفعل ولكن دعينا من الدراسة ما لي أراك على غير العادة خدودك مزهرة وعينيك فرحة هل ربحت بطاقة اليانصيب أم ماذا يا بنت ؟

أشعر أن هناك ورائك شيئا كبيراً جعلك تضاحكين الطيور .

أشحت بوجهي عنها واتجهت اتجاه سريري ورميت بنفسي فوقه واضعة يدي تحت رأسي وقلت بهدوء مصطنع :

- أبداً يا صغيرتي الحبيبة ليس هناك شيئاً مهما لكني سعيدة ، فقط سعيدة ولست أدر لماذا ولا يهمن السبب المهم إني سعيدة وهذا يكفي .

تركت مقعدها وجاءت اتجاهي وجلست بجواري أزحت لها مكاناً لترتمي بجانبي وقالت :

- هل تمزحين أنا أختك ، حبيبتك وأكثر الناس معرفة بك اخبريني هي أخبريني لا بد أن هناك في الأمر سر فقد كنت شاحبة في الأيام الماضية ، ليس في الأيام الماضية فحسب إنما اليوم صباحاً أيضاً فاخبريني سلمى أخبريني ، ألست أختك الصغيرة المدللة وحبيبتك .

نظرت إليها وهي تتكلم بدلعها المعتاد وضحكت لكلامها ودلالها وقلت :

- أنت قلتها أختي الصغيرة وغمزت وأكملت لا زال هناك وقت لمعرفتك مثل تلك الأخبار يا صغيرتي وحتى تكبري سأخبرك حينها .

نهضت من مكانها ووضعت يدها على خصرها وقالت :

- أتمزحين يا سلمى أنا صغيرة ؟!

لست صغيرة وليس بيني وبينك من العمر سوى ثلاثة

سنوات .

ضحكت وضحكت حتى علا صوت ضحكتي ، لكم تضحكني هذه الفتاة بحركاتها وكلماتها وقلت :

- حسنا سنؤجل الكلام الآن فقد جاء والدنا وسامر أمك تنادينا لتناول العشاء هي لنذهب .

أمسكت بيدها وخرجنا متجاورين باتجاه المطبخ فساعدنا والدتي في تحضير العشاء وتحلقنا على الطاولة .

مضى ذلك اليوم والأيام التي تليه بهدوء لا يتخللها أي جديد لكني كنت أشتاق لمختار، كنت أتمنى رؤيته واللقاء به لكني لم استطع ولم أصدفه إلا من بعيد حين كان كعادته يمر بجوار منزلنا في الذهاب إلى مدرسته والعودة منها وأنا أنتظر بين الوقتين بفارغ الصبر ولكم لعنت حظي العاثر لعدم قدرتي على إكمال دراستي فلو أكملتها كنت على أقل احتمال لاستطعت أن أراه في

المدرسة التي يدرس فيها ، لكن قدر الله ما شاء فعل ضلت الأيام تسير تباعاً يوم ممل يتلوه يوم ممل أخر يسود فيها فقد دقائق الانتظار لرؤية مختار من بعيد .

في يوم بعد أن جهزنا الغداء أنا و والدتي وكنا قد تحلقنا على الطاولة والدتي ووالدي وسمر فجاء سامر وجلس بجواري بعد أن ألقى علينا السلام وتوجه بسؤاله لسمر وعينه مليئة بالأمل :

- كيف دراستك يا سمر عسى أن لا تخذلينا ؟

ردت فرحة بسؤاله وهي تشع ثقة بنفسها ومعلوماتها

- ممتازة يا أخي سوف أنجح إن شاء الله بل سأكون من المتفوقات ولن أخذلكم أبدا .

هز والدي رأسه بقلة حيلة وقال :

- لا تأمل كثيرا يا سامر فحتى إن نجحت لن أدعها تكمل دراستها فقط لهذا العام ، البنت مكانها البيت ولولا إصرار خالك ومكانته لدي لما تركتها تدرس أبداً .

قال والإصرار بعينيه :

- لكن يا والدي قد تغير الزمن والفتاة لها حق في التعليم مثلها مثل الولد ، لا يجب أن نمنعها بل من الواجب أن نساندها ونشجعها للاستمرار بالكفاح ألا يكفي أن سلمى قد حرمت من تعليمها .

نظر والدي نظرة غاضبة إليه وقال وهو يكمل طعامه :

-لا تعارض يا ولد البنت مكانها البيت أنا رب الأسرة وأنا من يقرر ، عليك بنفسك فحسب ولا تفسد عقول أخواتك .

رد بقلة حيلة : - حسنا يا والدي كما تريد لكن يجب أن نساعدها حتى تنهي دراستها لهذا العام .

ونظر إلي وقال سلمى أريد أن أتحدث معك قليلاً بعد الغداء ثم وضع عينه بصحنه وأكمل طعامه .

- كما تريد يا حبيبي سأعد لك أطيب إبريق شاي وآتيك إلى غرفتك .

ردت والدتي وهي تنظر إليه

- ماذا هناك يا بني قد شغلت فكري على أختك هل هناك خطب .

- لا شيء يا أم مسعود أخ وأخته هل يجب أن يكون هناك شيء إذا تكلمنا .

رد والدي ببروده المعتاد وقال لهامشيراً إليه :

- أنت تعرفي ولدك يريد أن يفسد عقول بناتك بفلسفته الجديدة .

ضحك ثم نهض وقبل جبين والدي وخد أمي وقال :

- إنه الزمن يا أبو مسعود الزمن تغير .

ذهب إلى غرفته فضحكت والدتي وابتسم أبي فهو بالرغم من عصبيته إلا أنه يحبنا حد الجنون بل إني أحسبه يحبنا أكثر من والدتي لكن لما هذا التعصب لست أدر .

بعد الغداء أنهيت مع والدتي غسل الصحون وترتيب المطبخ ثم أعددت إبريق شاي أخذت كأسا لوالدي إلى غرفته وكأساً أخرى إلى غرفة سامر طرقت الباب

طرقات خفيفة ودخلت .

ابتسم ابتسامة حانية وقال :

- ادخلي يا سلمى تعال لنشرب الشاي سوية فدخلت باسمة ووضعت الشاي على الطاولة وجلست بجواره لكم كنت أحبه فو الأخ الحان والأقرب لقلبي .

لطالما كان لنا السند بالرغم من كونه الأخ الأصغر في عائلتنا .

- أنت تعلمي يا أختي أني أحبك وسمر أكثر من أي شيء في الدنيا وأنا أعاملكما من موجب محبتي .

معاملتي مغايرة لوالدي وأخي مسعود فعلى الرغم من محبتهما لكما إلا أنهما يتعاملن مع المرأة بشكل عام كأثاث في المنزل أو سلعة تباع وتشرى ولست ألومهما فهما من الطراز القديم ولا ثقافة لديهما والحمد لله أن مسعود قد تزوج واستقل ببيته ليس لشيء إنما ليخف الضغط عليكما أنت وسمر فضحك وهو يقرص خدي

- ضربتين في الرأس موجعتان .

ضحكت على كلامه وقلت :

- أعرف كل هذا الكلام يا أخي ولكن ما مناسبته أعني لما تقوله اليوم وأنا وأنت نعرفه منذ كنا أطفالا أم أذكرك إذا نسيت .

ففهم ما ارمي إليه وقال :

- لا لم أنسى لكن اليوم أنا وأنت قد كبرنا ولسنا أطفالاً ، أصبحت فتاة ناضجة في مقتبل العمر ، بل ربما امرأة صالحة للزواج ويجب أن تعي ذلك ولا بد من وجود شخص يساندك في كل أمورك ومن ثم يجب أن نساند سمر في دراستها فرغم كلام والدنا أنه لن يسمح لها بإكمال دراستها فأضنه عند إصرارنا سيرضخ .

أنزلت رأسي خجلاً وكاد العرق يتصبب من جبيني وقلت :

- أنت دائما معنا يا أخي حتى حين كنت صغيراً وكان والدي يضربني أحيانا كنت تحاول على الرغم من جسمك الهزيل أن تصده وتمنعه عني وأذكر يوماً حين

أطعمك صفعتين على وجهك لأنك منعته عني ورماك على الأرض ، أنت من يومك يا أخي تحبنا ونحن نحبك فاطمئن يا قلب أختك أنا بخير .

ابتسم ابتسامة حانية وقال :

- حسنا يا سلمى ولكن لي عندك طلب .

هززت برأسي مؤيدة فأكمل :

- أريدك أن تشاركيني في كل ما يحدث معك بكل شيء من صغيرة وكبيرة وأن تعتبريني صديقاً قبل أن أكون أخاً ولا تترددي يوماً في طلب أي شيء وكل ما تحتاجين .

جال بفكري أن أخبره عن مختار ومحبتي له لكني تردد و تركت الأمر لوقت لاحق ، هززت برأسي ممتنة وقبلت خده وأنا خارجة من غرفته

- إن حدث معي أي شيء ستكون أول شخص أخبره هذا وعد .

- أكيد يا سلمى ؟

- أكيد يا أغلا أخ .

خرجت من عند سامر وأنا جد سعيدة كنت واثقة من محبته لنا أنا وسمر ، إنَّ الأخ هو السند الوحيد لأخته في الشدائد .

مختار

تسابقت الأيام سريعة بجمال لحظاتها و بطيئة بثقل الشوق وسكرات العشق الممنوع ، قد اختلطت عليَّ الأفكار وبدأت استفيق من كل الأحلام ولم أعد أشعر بنفسي إن كنت نائماً أم مستيقظاً ، جُلُّ ما أعيه أني أعيش في سكرتي دون أن أشرب .

الأيام قد تغيرت كأنني قد ولدت من جديد ، كنت أشعر بأشياء كثيرة .

حدثت مازن بما أشعر به ابتسم ابتسامة خبيثة وقال :

- كل هذا قد فعلته سلمى بك ألهذا القدر تحبها ؟

أشحت بوجهي وقلت :

- نعم يا أخي ، أنت لا تعلم كم أحبها .

لو تعلم ماذا فعلت بأيامي بعد ذلك الفراغ الذي كان يمر بحياتي .

بعد تلك الوحدة القاتلة تظهر سلمى ، آه يا سلمى .

- لست أصدق ما اسمعه منك أنت الذي كنت لا تريد الوقوع في براثن الحب ومشقاته هكذا يصيبك .

قلت وأنا انظر إلى سقف غرفتي :

- ربما لا تصدق يا صديقي لكن ما قلته لك ليس إلا شيئا بسيطا مما أشعر به .

- وهل بقي المزيد ؟

ألا زلت تخبأ أكثر ؟

أعلم أن الحب جميل بل هو أجمل ما يستحق للبشرية أن تعيشه لكن هل سألت نفسك يوماً إن كانت الحياة بالحب فحسب .

وهل بالحب وحده نعيش ؟

- نعم يا مازن بالحب وحده يمكننا أن نعيش، انظر إلى العلاقات في المجتمع ، علاقتي بأهلي الأم والأب والأخوة ومن ثم علاقة الزوج والزوجة كما الحال بينك وبين صفية أليس كلها بالحب ؟

- أضن أنك مخطئ بعض الشيء ، صحيح أن الحب

مهم لكن ليس إلى درجة التملك والاستعباد .

حدقت به وقد اتسعت عيناي وزاد انتباهي معلناً عدم إدراكي لما يرمي إليه فقال :

- أنت تعلم أن بعض الناس ومنهم الكثير من يتخذ الحب دستوراً يمشون عليه ، يعيشون حياتهم تسخيراً له وهذه الحالة تكون عند المرأة أكثر منها عند الرجل .

هززت برأسي وقد أدركت ما يبغى الوصول إليه وقلت

- أنا معك في هذا لكن الحياة دون الحب ليست بشيء سوى غريزة حيوانية أو جماداً لا مشاعر فيه بدونه تصبح العلاقات الإنسانية خاوية من المعنى تقتصر فقط على المصالح النفعية دون رادع خلقي أو حتى عاطفي وعقلي ، مثلاً العلاقة الزوجية كيف ستكون دون الحب أكان قبل الزواج أو بعده على حد السواء .

قال وقد ارتسمت على وجهه ملامح الجدية :

- برأيك الحب قبل الزواج أفضل أم بعده ؟

أجبته بنوع من التردد فأنا جربت الحب قبل الزواج لا بعده :

- باعتقادي قبل الزواج أقوة فالحب يمرُّ على العاشقين ويتعرفان على بعضهما بشكل أكبر فما رأيك أنت ؟

- هذا موضوع كبير وليس بإمكاني أن أعطيك جواباً شافياً ، ليس لشيء إنما لأنه متعلق بكل شخص على حدا ، والمفهوم الأساسي للحب عند الرجل يختلف منه عند المرأة ، بعض الناس يعتقد أن الحب قبل الزواج أقوة كما أجبت أنت والبعض يراه بعد الزواج أقوة واشمل ولكلٍّ رأيه وكله صواب بحسب الشخص وبحسب الحالة ، وهناك قسم ثالث يرى أن علاقة الزواج علاقة تسلط وسيطرة وهذا الرأي عند الرجال وليس النساء .

- اعذرني فأنا لم أفهم ، اشرح أكثر .

ضحك وقال :

- سأشرح لك وجهة نظري وأعتقد أنها أصح من غيرها

الحب بشكل عام إن كان قبل الزواج فهو حب صادق نابع من القلب ويكون مصاحباً للشوق وملازماً له ، فالعاشق يكون مشتاقاً لحبيبته حتى وإن كانت أمامه ويشتاق لها أكثر وهي غائبة وهذا قبل الزواج ، أما بعده فيتصعد ويتحول إلى مسؤولية سواء عند الرجل أم المرأة ، فهو يتحول بعد الزواج وبحكم عاطفة الأمومة عندها إلى حب الأولاد ورعايتهم بالإضافة إلى راحة زوجها مما يحملها طاقة أكبر ، كما أن الرجل بالمقابل يتحول عنده الحب إلى الرغبة والعاطفة الجنسية أكثر من أي شي ويبقى الشيء الأخير الذي يجمع بينهما هو الفراش ، وهذا كله إن كانت علاقة الحب أثمرت بالزواج ، أما إن كان الحب بعد الزواج فتكون العادة وحب العادة هي الحاكم الأكبر بين الزوجين حيث يقنع كل منهما بنصيبه ويعتاد على طباع الآخر وعاداته ويبدأ بعدها الحب وأحياناً لا يحدث ، وفي الحالتين قد يحدث

الخلاف سواء في الحب قبل الزواج أم بعده .

هذا بشكل عام يا صديقي ولكل رأيه .

- تعجبني أفكارك ، أشعر أنك فيلسوف كبير .

ضحك من كلامي وقال :

- كلٌّ منا فيلسوف في حياته يا أخي .

نهض مغادرا وأكمل :

- علي المغادرة الآن قد تأخرت عن زوجتي .

- أين تذهب أبقى للعشاء معي ستعد لنا أم مختار العشاء .

قال وهو يلبس معطفه :

- لا لن أستطيع علي الذهاب يا أخي .

خرجنا من غرفتي وأوصلته إلى الباب وحين عدت خرجت أمي من غرفتها باتجاهي وقالت :

- أين ذهب مازن ولما لم يبقى للعشاء معنا ؟.

- مازن دائما هكذا متعجل يا أمي .

- يا عين أمك أراك متعلقا بصديقك .

- نعم يا أمي مازن مثل أخي فهو الصديق الأول .

ربتت على كتفي وابتسمت مغادرة .

دخلت غرفتي وأكملت دراستي والتفكير بدأ يعصف بعقلي ونبضات قلبي زادت فقد رنَّ الهاتف وكانت سلمى المتصل ، تلك الاتصالات وسماع صوتها كان ما يساعدني على الاستمرار بالحياة ، حياة طويلة جميلة قد بدأت أشعر بها إنه الحب .

مضى الليل والليالي التي تليها منها ما هو طويل ومنها ما يسير بسرعة والحب أصبح مسيطراً على حياتي أما الشوق والحنين لسلمى أصبح قاتلي الوحيد .

مضت الأيام ولقاءاتنا أصبحت تقل شيئا فشيئا كأن لقائي بها أصبح كأيام عمر تقترب من الموت .

أصبحت الحياة تأخذ مساراً جديداً والأمل في الحب أصبح بعيداً يوماً بعد يوم فاللقاء بات كأنه حلم جميل والأصعب من كل هذا وذاك الأوضاع السيئة التي حدثت ، فقد أصاب والدي مرض مزمن وقعد عن

العمل في البيت فلم يعد قادراً عليه مما جعلني ابحث عن عمل لأعيل العائلة فلا زال إخوتي صغار ويدرسون ولا بد لنا من معيل ، المشكلة الأكبر أني في مرحلة الشهادة الثانوية .

التقيت إحدى مرات عودتي من عملي بمازن بعد غياب الشمس فأصر على ذهابي معه إلى بيته وبعد أن ألقيت التحية على صفية سألتها عن حالها جلسنا في الصالون ، كنت متعباً حقاً بان الشحوب في عيني فقال :

- كيف حالك وكيف حال والدك ألم يتحسن ؟

- لا بأس يا صديقي أنا بخير لكن والدي لا زال متعباً ، وضعه الصحي ليس جيداً لكن ما باليد حيلة

- لا بأس لا زلت شاباً والحياة أمامك وستكون الأمور بخير ، أيام وتنتهي لكن عليك بالصبر .

- تعلم أمراً ؟

إن ما يجري معي الآن لهو بالشيء الكثير ولست

أحسبني بقادر على احتماله ، بعد المرض الذي أصاب والدي جُبرت على العمل وليست المشكلة بعملي إنما المشكلة في دراستي التي تعني لي الكثير وأنت تعرف أكثر من غيرك ماذا تعني لي هذه السنة .

قال وهو يناولني كأساً من الشاي :

- أعلم أن أمورك أصبحت سيئة هذه الفترة ، لكن لا يجب أن تستسلم لليأس أنه أسوأ عدو يواجه الإنسان في حياته ، النجاح يحتاج تضحية ، تضحي بوقتك تضحي بسعادتك وبراحتك وحتى هناك أناس قد ضحوا بحياتهم وكل شيء للوصول إلى غاياتهم .

- اليأس ؟!

وهل بقي في حياتي غيره ؟.

- أعرفك أقوة من ذلك لا تيأس لا تخف فالخوف أول قاتل للنجاح .

دخلت بعدها صفية تحمل طفلتها ملك وألقت السلام قالت بعد ملاحظتها تعبي :

- هدأ من روعك يا مختار هكذا هي الحياة عزيزي .

ألقيت نظرة إلى الطفلة البريئة فابتسمتُ لها:

- إن الكلام في هذا الموضوع مفروغ منه ، أخبريني الآن كيف هي أحوالكم بعد أن رزقكم الله بهذه البنت الجميلة ما شاء الله إنها بغاية الروعة .

ضحكت صفية وقالت بعد أن قبلتها قبلة حانية :

- نحن بخير يا عزيزي وحياتنا أصبحت أروع وأجمل

إن الطفل يا مختار يجعل الحياة بين الزوجين كحلم جميل لا يتمنون الخروج منه ، وإن شاء الله سنفرح بك وبسلمى وترزقون بأطفال مثلنا .

- سلمى ؟ آه من سلمى فما شقائي وعذابي إلا منها .

فرد مازن :

- لماذا يا مختار ألست تراها ؟

- لا لست أراها ولا أعرف كيف وأين يمكنني أن ألتقي بها أتعلم إني لم ألتق بها لأكثر من شهر بل إني

حتى لم اسمع صوتها ولم ألمح طيفها حتى من بعيد .

تنهدت صفية وقالت :

- كل هذا ؟

معقول يا مختار .؟

- وأكثر يا أختي وهذا الأمر بات يتعبني أكثر من كل شيء .

قال مازن :

- لا تقلق كل عقدة ولها حل ، ستحل كل أمورك أنا واثق من ذلك .

- إلا عقدتي ، تصور يا رجل حتى لمحة منها لا يحق لي واليوم قد مضى على حبنا سنتين لم نستطع حتى أن نلتقي مثل كل العشاق ، لم نحظى إلا بلحظات قليلة تكاد تعد على الأصابع وكل هذا لأنها تخاف من أهلها

- لا تقل هذا الحب ليس بكثرة اللقاءات بل وليس بالرسائل ولا الهدايا إنما هو اكبر من ذلك بكثير ، أنت تعلم ماذا أعني .

- على كل حال سأغادر لا أريد أن أتأخر أكثر .

نهضت مغادراً وودعتهم رغم طلبه مني البقاء أكثر لكني آثرت الخروج فهناك ضيق في صدري كأن جبلا يكتم على أنفاسي .

رجع مازن يقبل خد صغيرته فقالت صفية وهي تنظر إليه يداعبها :

- لما ذهب مختار بسرعة مسكين أوضاعه سيئة .

- لا تخاف عليه إنه قوي ، سيتخطى هذه المصاعب .

خرجت من بيت مازن بعد المغيب وقد أسدلت الشمس ستارها وبدأ الليل مغطياً تلك المدينة الصغيرة كنت أسير وأنا هائم لا أشعر بنفسي أين الخطى ، آه يا نفس ماذا تريدي ؟

أسير ولست أدر أين المسير ، لست أدري أين تخطو قدماي، جل ما أدركه أني أمشي باتجاه مجهول .

تحدثني نفسي هل ستذهب إلى ديارها ؟

إن ذهبت لن تجني سوى ذيول الخيبة والألم .

لكن علني أحظى برؤية طيفها ، بل لعلي أراها ، ها أنا قد وصلت دارها .

وقفت من بعيد أرقب دارها ، أراقب ضوء نافذتها أين أنت يا سلمى ألا يمكن أن يكون قلبك قد شعر بي أراقب الدار علّي أراها ، لن أستطيع أن أناديها ، لا يمكنني أن أصرخ باسمها ولن اقدر على رؤيتها .

آه يا نفس منك ومن قدماي ، قد جئت إلى هنا بحثاً عن طيفها ، لكن ما من سبيل لذلك ، الليل قد أصبح موحشاً والسماء قد ملئت بغيومها حاجبة ضوء النجوم والأمل قد اندثر وضاع في غابة الخذلان .

أكملت مسيري إلى البيت فتحت الباب ودخلت إلى غرفة والدي أطمئن عليه ، كانت العائلة كلها عنده أخي ريان وأختي رزان و والداي استقبلتني والدتي بحضنها الدافئ وقبلت جبيني فقالت :

- قد تأخرت يا حبيب أمك قلقنا عليك .

- لا تقلقي يا أم مختار لقد مررت إلى بيت مازن

قليلا .

ابتسمت بحنان وقالت :

- حسنا يا حبيبي أدخل لأحضر لك العشاء .

- لست جائعاً أريد أن أدخل لأدرس قليلا .

بعد خروجي قال ريان متسائلاً :

- ما بال مختار لا يبدو على طبيعته .

فقالت رزان :

- سأذهب لأطمئن عليه إنه لا يخفي عني شيئا .

طرقت باب غرفتي طرقات خفيفة كنت قد جلست على سريري وقالت :

- نحن قلقون عليك يا أخي أهناك حطب ما .

أمسكتها من خدها وقرصتها قرصه حانية :

- لا تخافي يا عزيزتي ليس هناك خطب ، كل ما في الأمر أني متعب من العمل والدراسة لا غير .

دار بيننا حوار حول دراستها وأحوالها ثم نهضت وقبلتني وغادرت .

بقيت في غرفتي أدرس وأفكر حتى غلبني النعاس وفي الصباح كنت قد استعدت نشاطي ، خرجت من غرفتي ودخلت غرفة والدي وقلت :

- صباح الخير يا أم مختار ويا أبا مختار .

وقبلت جبين والدتي ويد والدي وتابعت : -

هل ذهب ريان ورزان إلى المدرسة .

- نعم يا عين أمك أنت أيضا تناول فطورك قبل ذهابك وانتبه إلى دراستك ولا تفكر في شيء .

قلت وأنا اجلس على سرير والدي :

- حسنا يا أم مختار سأفطر وأخرج إنَّ لدي يوم طويل علي بعد انتهاء المدرسة أن اذهب إلى عملي الجديد .

رد والدي وقد نظر إلي نظرة ممتنة :

- لا يا مختار أنت لن تعمل بعد اليوم فقط عليك أن تدرس ، لقد قررنا أنا وأمك أن نبيع الأرض حتى نستطيع أن ندبر أمورنا ريثما تنهي دراستك لهذا العام أنت أملنا يا بني .

- لكن يا والدي كيف سنعيش بدون الأرض والبستان ومن دونها لا حياة لنا ولا كرامة ، أذكر حين قلت لي الأرض هي الوطن وهي الكرامة أم نسيت يا أبا مختار .

قال والألم يعتصر من عينيه :

- لم أنسى يا بني لكن ما باليد حيلة أنت وأخوتك عندي خير من الأرض ، عليك أن تعدني بأن تدرس وتنجح وبعدها ستشتري لنا أرضا خيرا منها .

هززت رأسي معترضاً لكنه أكمل :

- انتهى الأمر يا مختار قد تكلمت مع تاجر سيأتي اليوم ليشتريها أذهب الآن إلى مدرستك بعد أن تنهي فطورك فقط اهتم بدراستك .

خرجت من البيت إلى المدرسة وخرج معي يأسي .

بعد الظهيرة وكعادتي سلكت الطريق المؤدي إلى بيت سلمى ، كانت اللحظة المنتظرة ، فقد كنت أسير بخطاي متردداً خائفاً ولست أدر لما خوفي .

أهو من أهلها إن رأوني أم هو الخوف من الخذلان بألا أراها .

كنت أسير خطوة بخطوة وخوفي مع كل خطوة بدأ يزول أولاً بأول حتى رأيتها في الحديقة وهي تسقي الأزهار .

وقفت مكاني للحظة محدقا بها من بعيد ثم اقتربت خطوة بخطوة بهدوء وقد التفتت إلي وغمرتني بنظرة دافئة مليئة شوقاً وعتاب ، ثم ابتسمت وأنزلت رأسها خجلاً .

ما أجمل ابتسامتك يا سلمى إنها بلسم يشفي السقيم وحياة لميت لا حياة فيه .

تقدمت منها و أشعر نفسي في حلم لا أتمناه ينتهي وصلت إليها وأخذت بيدها مسلماً ، حين مدت يدها ضممتها بين يدي الراجفتين فشعرت برعشة شديدة أنستني نفسي وقد احمر وجهها خجلاً فسحبت يدها وقالت :

- هل نسيت نفسك يا مختار أنظر أين نحن ؟

- أنت بحق زهرتي الجميلة بل أنت أجمل أزهار العالم .

زاد خجلها وبدأت تنظر حولنا وقالت بهدوء :

- أعتذر كل الاعتذار يا مختار لكن لا تنسى أننا في بيت أهلي وهم على الحال الذي أعلمه وتعلمه أنت .

- أعلم لكن ما الحل قد فاض شوقي .

- حسنا اذهب إلى الحديقة في الحي الغربي وسألحقك هناك سأحاول أن أقنع والدتي بأي شيء انتظرني لن أتأخر .

- حسنا سأنتظرك حتى لو انتظرت العمر بطوله .

هزت رأسها وافترقنا فذهبت إلى الحديقة ، انتظرت هناك وكما وعدتني قد جاءت ، ألقت علي السلام وجلسنا على مقعد منعزل فيها ، حدقت بعينها وقالت

- أعلم يا مختار أنك مشتاق لي وأنا شوقي مثلك أو أكثر لكن ليس باليد حيلة .

أمسكت بيدها وقلت :

- حبيبتي سلمى ، أيامي وأحلامي ، صحوتي ومنامي زهرة أيامي وصرخة أشجاني قد أفاض قلبي شوقي وأنهك قوتي فراقي وأبكى عيني وداعي .

ترقرقت دمعة في عينها وقالت :

- لا تقل هذا يا حبيبي ولا تشعرني بالضعف ، أنا استمد قوتي منك أنت .

- أي قوة تتحدثين عنها ؟ فمن دونك ومن دون رؤيتك لا حياة لي فقد اشتقت إليك يا سلمى اشتقت شوق الطيور لأعشاشها ، شوق الغيوم لمطرها اشتقت لعينيك شوق النار للهيبها وشوق الأم لفقيدها .

- لست ادر ماذا أقول ، أنت تعلم أن شوقي يعادل شوقك وحبي لم يحب إنسان كما أحببتك لكن ما باليد حيلة علينا أن نتحلى بالصبر ، هو الوحيد لخلاصنا .

- لكن يا حبيبتي تعبت من هذه الأيام وتعبت من بعادك ، لم أرك منذ أكثر من شهر وهي مدة جد طويلة وأنت تعلمي لكم احتاجك .

فرفعت يدي وأدارت بظهرها واضعة نفسها على صدري وقالت :

- حبيبي مختار صحيح أننا أحببنا وحبنا بدأ يعذبنا لكن ماذا نفعل ، إن حبنا حبٌّ مقيد والشوق أرهق أنفاسنا ، كله سينتهي والمهم الآن أني بقربك وأضع رأسي على صدرك واستمع لدقات قلبك وهذه اللحظة تعادل عذاب كل السنين أليس كذلك ؟

ورفعت رأسها تنظر إلى عيني .

وضعت يدي على رأسها وأرجعته على صدري وأنا أمسد شعرها ، ساد صمت لطيف وملئت الحديقة بنظرات العيون .

الورد ينظر والشجر يبتسم والعصافير تتراقص وأنا تائه حائر غارق في بحر كبير لا نهاية له ، صفاء عينيها سماء واسعة مليئة دفئاً وحناناً يرتاح به كل مسافر متعب وشوق دفين يبحث حن الحب بين غابة الذكريات يسافر مسافات ومسافات حتى يصل إلى حبه الأول

لحظات كانت هي لكنها أزمان وأزمان قد شعرت بها حياة لا تنتهي .

رفعت رأسها واعتدلت وقد احمرت خجلاً ونظرت إلي نظرة غير عادية فقبلتها قبلة لم تكن عادية ، نهضت من مكانها خجلة تريد المغادرة فأمسكت بيدها وقلت :

- حبيبتي لا تحزني كلها أيام وتمضي ولا بد أن نلتقي لقائنا الأبدي ولن يستطيع أحد أن يفرقنا .

- أتمنى ذلك سأذهب الآن لا استطيع أن أتأخر وأخشى أن يرانا أحد من أهلي هنا ولست أدر ما سيحصل عندها .

ودعتها وعيني تراقب خطواتها وهي تبتعد حتى خرجت من الحديقة وغابت عن ناظري ، نهضت من مكاني تخالجني مشاعر مختلفة وراحة وسعادة شديدة فقد شفيت برؤيتها وأخرى ألم وحسرة فلم أرتو منها .

قال مازن يوماً إن الحبيب يشتاق حبيبته حتى وهي أمامه .

أفكار تأخذني وأخرى تجيء بي ، سرت إلى البيت .

كانت سلمى قد عادت إلى بيتها وحين دخلت نادتها أمها وقالت :

- أين كنت يا سلمى ؟

تعالي ساعديني و ناد سمر لتساعدنا .

اقتربت منها غامزة وقالت :

- يا أم مسعود ما لك ولسمر دعيها وشأنها يا حجة أنا أساعدك ألا أكفيك ؟

فضحكت وقالت :

- بلا تكفي وتزيدي .

فتح الباب ودخل سامر كعادته مداعباً لأمه يقبلها على خدها ويضع يده على رأس سلمى ، سألته والدته عن أبيه فأخبرها أنه سيتأخر.

مضى اليوم بطوله والسعادة تغمرها ، وانتهى سريعاً هكذا هي أيامنا الجميلة لا نشعر بها حتى تنتهي كلمح البصر ، أيام متتالية متسابقة سلمى في حياتها وأهلها

وأنا في دراستي وقد ازدادت ساعات دراستي لعلي أعوض النقص الشديد الذي حصل معي في تلك الفترة من إهمالي الدراسة للعمل ، ومع هذا لم تكن دراستي كما يجب فقد اشتد المرض بوالدي أحضرنا له الطبيب وبعد الفحص قرر تحويله إلى المستشفى .

قمنا بحمله إلى المستشفى بسيارة للأجرة فليس هناك سيارة إسعاف كنت برفقته أنا ووالدتي وأخي ريان في المستشفى جاء الدكتور وقام بفحصه فطلب من الممرضة أن تعلق له المحلول الوريدي ، وضعوا له أجهزة الأكسجين فقد كان يعاني من ضيق في التنفس وانخفاض كبير بالأكسجين كان مؤشره الحيوي يعطي فقط اثنان وثلاثون وهو قليل جداً بالنسبة لمنسوب الأكسجة الذي لا بد أن يكون أكثر من مئة ، بعد ساعة من الانتظار قد ارتفع منسوب الأكسجة كما أسماها الدكتور وقد استفاق تماماً فطلبت من والدتي وأخي أن يغادرا المستشفى فقد تركنا أختي

لوحدها في البيت كما أن نظام المستشفى لا يسمح بأكثر من مرافق للمريض .

لعنت يومها مثل تلك القوانين لكن ما باليد حيلة كان الوقت بعد الظهيرة فعادا إلى البيت وبقيت أراقب والدي ، أراقب درجاته الحيوية على الجهاز الذي تم وضعه بجانب سريره ، كان المؤشر الحيوي يرتفع شيئاً فشيئاً وبخاصة درجات الأكسجة .

استقرت على درجة الاثنان والستين فانخفضت حرارته وفتح عينيه واستعاد وعيه وطلب مني أن أحظر له شيئاً ليأكله ، خرجت مسرعاً من المستشفى إلى سوق بجوارها وأحضرت له اللبن والفواكه وحين عدت طلب مني أن يتحدث إلى والدتي بالهاتف فحدثها واطمئن عن البيت وقال إنه قد ارتاح هنا في المستشفى وأنه سيبقى حتى يشفى تماماً .

طمأنته بأننا لن نغادر حتى يتعافي ، هز برأسه ونام قليلاً ، لم يكن يريد المغادرة كأن به يشعر بشيء لست

أراه .

قبل غروب الشمس بساعة قد نفذ الأكسجين من المستشفى ولم يعد يستطيع التنفس فركضت إلى الطبيب طالباً منه جرة أكسجين أخرى فاعتذر مني وقال بأنهم لا يملكون أي جرار وأنهم ينتظرون قدوم دفعة من الأكسجين لكنها قد تتأخر ، ضاق صدري واسودت الدنيا بناضري ، ما الحل وأنا وحيد هنا في هذه المستشفى وبدأت أرى والدي ينازع الموت .

الخيارات أمامي قليلة وبدأت حرارة أبي تعود بالارتفاع وبدأ تنفسه يضيق ومؤشرات الأكسجة لديه على الجهاز لا تتجاوز الثلاثين ، ما العمل ؟

بدأت الحيرة تنتشل قلبي فنصحني أحد الممرضين بعد أن رأى خوفي على والدي وقال :

- عليك إن كنت تريد إنقاذ والدك أن تأخذه من هنا إلى مستشفى آخر يمكن أن تجد فيها الأكسجين .

فاتصلت بأخي وطلبت منه أن يحضر معه جرة

أكسجين حتى إن استأجرها لتعيننا على نقله من المستشفى إلى أخرى وخلال نصف ساعة كان قد حضر مستأجراً سيارة إسعاف كان معه أثنين من أقاربنا ، حملناه على الحمالات وانطلقنا إلى المستشفى الثانية وكانت تبعد مسافة أكثر من خمسة كيلو متر وفي الطريق قد فتح والدي عينه وخاطبني :

- أين نحن ذاهبون يا مختار لماذا لم تتركني في المستشفى سأموت إن ذهبت إلى البيت ، لا تأخذني إلى البيت

نزلت دمعة من عيني وقلت :

- لا تخف يا أبي ستكون بخير سنأخذك إلى مستشفى أخرى مزودة بالأكسجين .

هز رأسه وأغمض عينيه ، وصلنا إلى المستشفى المذكورة وأردنا إنزاله لكنهم لم يقبلوا بذلك فقد كانت تلك المستشفى مخصصة لمرض معدي يصيب الرئتين ولكننا لم نكن قد تأكدنا من أن حالة والدي إن كانت ذاك المرض ، وقال الطبيب المناوب نحن

سندخله لكنه سيكون وحيداً ولن يكون أي أحد برفقته فاعترضنا على ذلك ، كيف سنتركه وحيداً هنا واستقر بنا الرأي أن نعود به إلى البيت بعد أن نؤمن له الأكسجين اللازم على أن نغادر به في اليوم التالي إلى العاصمة علنا نجد العلاج الشافي لحالته فانطلقنا بأقصى سرعة عائدين إلى المدينة وقد واجهنا صعوبة كبيرة في تأمين الأكسجين فلا يتوفر إلا في المستشفيات الحكومية و قد اشترينا جرتين وعدنا إلى البيت .

كان الليل قد اشد وغابت أنواره في ظلام شديد والروح المتعبة التي تخالجني بدأت تعصف بقلبي وصلنا إلى البيت وأنزلنا والدي برفق وأدخلناه و وضعناه على سريره وأوصلنا له الأكسجين الذي قد جئنا به معنا من المدينة ، نام قليلاً وأنا وأخي كنا قد تناوبنا على السهر عليه بعد منتصف الليل وبسبب سهري لليلتين والنهار الطويل الذي مر بي غفوت دون أن أعي بنفسي .

أفقت قبل الفجر بقليل فنظرت إلى ريان والدموع بدأت تهرب جلية في عينيه ، فنظرت إلى والدي وهو في أنفاسه الأخيرة جلست قبالته على بعد خطوة وقد تسمرت عيناي اتجاهه فنظر إليَّ ريان وهز رأسه معلناً مفارقة والدي الحياة ، فابيضت الدنيا في عيني ومر شريط حياتي أمامي ضحكات والدي ومداعباته لنا كلمات وكلمات وسهرات ولحظات كلها رأيتها بلحظة وكلماته لي البارحة :

- لا تأخذني إلى البيت إذا ذهبت سأموت

- لا تأخذني إلى البيت إذا ذهبت سأموت .

هزني ريان وهو يبكي ويحضنني فدخلت والدتي وبدأت بكائها بحسرة ودخلت رزان مسرعة وارتمت على صدر والدي وبكائها يكاد يحمل الدار من مكانه اجتمع الجيران على أصواتنا وجاء أقاربنا بعد أن سمعوا بالخبر فقال أحدهم :

- إكرام الميت دفنه لنستعجل في تغسيل أبا مختار

ونكفنه ، أدخلناه في الغرفة بعد أن سخنوا الماء أدخلناه للغسل ، فطلب مني الشيخ أن أخرج حرصاً على مشاعري ، أصررت على الوجود معه لأخر لحظة ، قام بتغسيله أمامي ولا أذكر أني قد ذرفت لحظتها دمعة واحدة فقد نشفت دموعي أو أنها دموع تسقي القلب فلما خروجها ؟ القلب أولا بها .

انتهى من التغسيل والتكفين اقتربت منه ومددت يدي المرتعشتين إلى جبينه وقبلتها بعمق .

قبلتها قبلة أعلم أنها أخر مرة ، قبلة اعلم أنها وداعي الأخير ، قبلة أعلم أن روحه في السماء تشعر بها .

إنها روح أبي ، الروح التي لطالما أحبتني أكثر من نفسها و ضحت بكل شيء فقط لسعادتي فوداعاً يا والدي ، وداعاً يا روحي .

نهضت بعدها مكسوراً أجر يأسي وحزني ، دخل شبان من أقاربنا وجيراننا لحمل الكفن فساروا به وأنا وريان

نسير خلفهم وصولاً للمقابر القريبة وقمنا بدفنه إلى مثواه الأخير .

-4-

مرت أيام العزاء ، أيام ثقال تسير بطيئة جامدة أصبحت الحياة تأخذ بي مساراً كئيباً ، تراجعت في دراستي لأبعد الحدود والأمل في الحب أصبح بعيداً وبعيداً كلها تكون سوية ، لا يمكن أن تمر مشكلة واحدة فحسب إنها تتراكم متوالية ، إنها أيام ثقال لم أكن يوماً لأحسب نفسي سأمر بها وأتخطاها .

كنت أتخبط فيها بين دراستي الضائعة وتأمين عمل بعد وفاة والدي ، فثمن الأرض التي كنا قد بعناها لتؤمن القليل من متطلباتنا قد صرف ثمنها في المستشفى لعلاج والدي ، هكذا هي الأقدار قد شاء والدي أن يذهب ويأخذ معه أرضه التي لطالما كان ملتصقا بها أما سلمى فقد كانت تقضي أيامها بهدوء على الرغم من عدم سماعي أخبارها إلا الشيء القليل حين كانت تكلمني على الهاتف بدون أن يعلم بها أحد .

انقضى العام الدراسي وانتهيت من الامتحانات التي حاولت بكل جهدي أن أقدم فيها كل طاقتي لعلي أحقق هدفي وحلم والدي ولا زلت منتظراً نتائجها .

في يوم كنت أداعب الصغيرة ملك في بيت مازن .

لكا جالسين أنا ومازن وصفية فطرق الباب طرقات شعرت من خلالها أني أعرف صاحبها وكما توقعت كانت سلمى هي من دخلت برفقة صفية ، ابتسمت بوجهي وحملت الصغيرة ملك من يدي بعد أن ألقت علينا السلام ، ابتسم مازن وقال :

- أهلاً بسلمى لما لا نراك إلا نادراً ؟

ابتسمت ولا زالت تداعب ملك :

- لو كان بيدي يا أخي لكنت عندكم كل يوم لكن تعلم مشاغل البيت ، وحدقت باتجاهي تتفحص وجهي وأكملت :

- أنت يا مختار كيف حالك .

- مشتاق وشوقي بدأ يقتلني .

أحمر وجهها خجلاً فضحكت صفية وقالت :

- احم أحم نحن هنا .

قال مازن وقد حمل ملك من يد سلمى :

- تعالي يا أم ملك لنذهب ونعد القهوة فهذا مختار قد نسي أننا هنا ، لنخرج قبل أن يطردنا .

ضحكت من كلماته وقلت مازحاً :

- لا يا رجل البيت بيتك خذ راحتك . غمزني

وامسك بيد صفية وخرجا من الصالون ، جلست على الأريكة مقابلاً لها فنهضت وجلست بجواري

وأمسكت بيدي الجامدة وقالت :

- أخبرني يا مختار ما هي أحوالك قد اشتقت لسماعها وسماع حديثك حين أسمعك أشعر براحة لا مثيل لها .

أجبتها والتعب من عيني بدأ يتلاشى :

- أخباري هي أنت يا سلمى ، حياتي قد اقتصرت عليك فحسب ولست أحتسب لي عمرا قبلك ولن يكون عمري إلا لك وبك .

احمر وجهها خجلاً كعادتها حين أغازلها وقالت :

- أخجلتني كعادتك تسمعني كلاماً جميلاً أشعر أني أريد أن أطير ولست قادرة على الرد مثلك ، ربما كنت تضن أن حبي لك أقل من حبك فالكلام مرآة القلوب لكني أريدك أن تعلم إني أحبك ولم أحب سواك ولن أحب غيرك ما حييت .

أبسمت وأنا أقبض يدي بيدها المرتعشة وقلت :

- ليس لدي أي شك بما تقولي يا حبي وأعلم مدى حبك لي ومدى شوقك ولست طالباً منك أكثر من هذه اللحظة فهي وحدها كافية .

- بل أنا التي سعدت بك ولست أطلب من ربي إلا أن يجمعنا في بيت صغير يحتوي سعادتنا وفرحتنا .

ران صمت جميل علينا ، كنت أحدق بعينها الواسعتين وقلت :

- سيكون ذلك يا سلمى لا تقلقي سأعمل بكل جهدي

- ليس لدي أدنى شك يا حبي ، لكني خائفة .

- مما تخافي ما بالك أخبريني ؟

- أنت تعلم أني قد أصبحت في سن الزواج في الفترة الماضية قد تقدم لخطبتي أكثر من شاب فقابلتهم بالرفض القاطع ، لكن أخاف أن يتم إجباري فكما تعلم نحن الفتيات لا حول لنا ولا قوة ، وإن جاء لخطبتي شاب أعجب والدي قد يقوم بإجباري على الزواج وأنا وأنت نعلم ماذا سيفعل بي إن قابلته بالرفض .

شعرت بألم عينيها وهي تتكلم وارتفعت الدماء إلى رأسي وقلت :

- بيدك حق ، لكن قبل أن يقوم احد بخطبتك سأفعل أنا ولن أسمح لأحد أن يقتل حبنا .

- أحقا يا مختار ؟

هل ستقوم بخطبتي ؟

- نعم يا سلمى قبل نهاية هذا العام سأتدبر أموري وأتقدم بخطبتك فلا تخافي يا حبيبتي .

ابتسمت واكتفت بالنظر إلي وأثرت بدوري أن أبادلها نظراتها الدافئة دخلت صفية حاملة القهوة وقالت :

- تفضل يا مختار وأعتذر عن تأخري لكني قد نومت ملك وقد عذبتني الشقية .

ضحكت سلمى وهي تتناول قهوتها ودخل مازن مشاركاً جلستنا وكعادته ضاحكاً فرحاً رغم كل الظروف .

استأذنت سلمى ذاهبة وبعد ذهابها بقليل خرجت أنا الأخر عائداً إلى البيت وقد بدأ التفكير بكلماتها يدق أجراساً في عقلي وقلبي ، فربما يقوم والدها بإجبارها على الزواج من غيري فما يمكنني أن أفعل حينها المشكلة الأكبر الأوضاع السيئة التي ألت إليها حياتي في الآونة الأخيرة بخاصة بعد وفاة والدي التي مضى عليها عام واحد .

تساءلت يومها ، لو كان والدي على قيد الحياة كيف كان ليتصرف حيال حياتي ، حقاً إن الأب سند و ليس هناك من سند بعده ، لكن قد مات والدي وأنا

الآن مسئول عن عائلة مؤلفة من أم و أخوين
بالإضافة إلى وعدي لسلمى بأني سأسعى لخطبتها
صلت إلى البيت ودخلت غرفتي دون أن أقابل احد
فكرت طويلاً وطويلاً وكان لا بد من اتخاذ قرار
فقررت السفر إلى العاصمة بحثاً عن عمل .
إنها الخطوة التي عزمت على القيام بها ، بعد أيام من
اتخاذ قراري أخبرت والدتي على ما أنا عازم عليه
فاعترضت بداية لكنها رضخت لقراري لأنها تعلم ما
ألت إليه حالنا من حاجة ولا بد من عمل يعيلنا .
اتصلت بسلمى لأخبرها فطلبت أن أقابلها ، وافقت
على مقابلتي في الحديقة التي نلتقي فيها عادة .
بعد الظهيرة ذهبت إلى الحديقة التي كنا نلتقي بها
جلست على المقعد المعزول في أطرافها حيث كان يقع
بين عدة أشجار كأنه مخبأ للعشاق من نظرات الحساد .
جلست أعد الدقائق والثواني حتى أطلت بطيفها أمامي
باسمة ضاحكة تداعب خصلات شعرها النسيم بادرتني

بالسلام وجلست بالقرب مني ناظرة إلى عيني ، كأني أشعر بعينيها وهي تلتهم وجهي و طالما أحببت فيها تلك الأشواق ، مسحت بيدي على شعرها وقلت :

- حبيبتي سلمى شوقي وحبي الأبدي قد دعوتك اليوم لأقول لك أمراً مهما .

ضحكت وقالت :

- وهل هناك أهم من شوقي لك ، المهم أن أقابلك واشبع عيني منك .

ابتسمت ابتسامة باهتة وقلت :

- حبيبتي تعلمين كم أحبك وتعلمين مدى شوقي لك وعدم قدرتي الابتعاد عنك ، ولست أدر إن كان القدر سيجمعنا أم لا ، لكن مهما كان ما ستئول إليه الأيام من أحداث أريدك أن تكوني قوية وأن لا تستسلمي ولا تتخلي عن حبي .

وضعت يدها على فمي وقالت :

- لا تقل مثل هذا الكلام يا مختار ، كأن بي أشعر

بك تريد فراقي ، لا تفعلها يا مختار ، صحيح أننا لا نلتقي إلا القليل لكني لا أحتمل أن يكون فراقنا طويلاً فالفراق قاتل للحب والعشاق .

- أعلم أن الفراق قاتل لكن ما باليد حيلة ، سأسافر حتى أأومن وضعي وأستطيع أن ألبي حاجات أهلي ومن ثم أكون قادراً على التقدم لخطبتك .

ابتسمت على كلمتي الأخيرة وقالت :

- صحيح كلامك يا مختار أهلك بحاجة لك واعذر أنانيتي ، أنا لم أفكر سوى بنفسي وبشوقي لك ، الأهل يا مختار كل شيء في حياة أحدنا أفعل ما تراه مناسباً وأعلم إني على عهدك ما حييت .

فران صمت بيننا كأن دقات الساعة قد توقفت والزمن أصبح لوحة جامدة ساكنة لا يشوبها سوى أصوات أنفاسنا التي بدأت تعلو وتخفض والنظرات بيننا هي وحدها تتكلم ، تصدح كلماتها معلنة انتحارها وبكائها فقطعت سلمى شرودي وقالت :

- متى تنوي الرحيل ؟.

- غداً صباحا سأسافر .

أطبقت شفتاها وهربت دمعة من مقلتيها وقالت :

- غدا ؟!

تسافر وتعود لي سالماً يا حبي الأبدي فحضنتني بين ذراعيها بقوة ووضعت رأسها تحت رقبتي ، كأن بها تشتم عطري مودعة .

رفعتُ رأسها برفق ووضعت خديها بين راحتي يدي وقبلتها على جبينها قبلة لا أكاد اضن أنها ستنتهي لحظات قد مرت بقلبي يكاد يخرج من حجره .

نهضت سلمى مودعة ، جارة ذيول قهرها وموت شوقها .

بقيت لحظات ونهضت خارجاً من الحديقة مودعاً لأشجارها وأزهارها أمنتها على حبي وحبيبتي علها تحفظها في غيابي .

ذهبت إلى بيت مازن حتى أودعه وزوجته والصغيرة

ملك فقد تعودت عليهم فهم بيتي الثاني بخاصة تلك الشقية الصغيرة سيصعب عليَّ فراقها وحين أخبرتهم بقرار سفري استغرب وقال :

- هل تحتاج نقود ؟

إن كنت بحاجة لها سأعطيك .

شكرته ممتناً ورفضت ذلك فلطالما كان داعماً لي منذ تعرفي به .

خرجت بعدها ذاهبا إلى البيت وسهرت مع والدتي وأخي وأختي ، تحدثنا في الكثير من الأمور .

كنت أريد أن تمضي تلك الليلة بهدوء وأردت فقط أن أضع رأسي على الوسادة دون أن أفكر بشيء، كان اليوم طويلا وأمامي أيام لا أعرف كنهها .

سلمى

خرجت من الحديقة بعد لقائي مختار وقد أخبرني بعزمه على السفر بحثاً عن عمل وعن حياه جديدة ، تفطر قلبي من الحزن ، الدموع التي أخفيتها عن مختار تكاد تخرج فاضحةً وجهي لكني تجملت بالصبر وسرت بخطى سريعة حتى وصلت البيت ، دخلت وأشحت بوجهي حتى لا تراني والدتي فقد نادتني فور دخولي – تعالِ يا سلمى أين كنت قد قلقت عليكِ؟

هدأت من روعي ومسحت وجهي براحتي و قلت بهدوء مصطنع :

– كنت عند صفية قريبتنا يا والدتي وهي أخرتني .

– إن زياراتك لصفية قد كثرت هذه الفترة ما الذي جمعكما لست أدر .

رفعت كتفي دون الحديث وهممت بالمغادرة فنادتني وقالت :

- تعال يا ابنتي لنعد طعام العشاء لأخيك وأبيك إنهم على وصول .

أومأت برأسي بملل وضجر وقلت :

- آه يا والدتي كل يوم نفس العمل ، نُعد الغداء ثم العشاء ، ننام ونستفيق ونعد الفطور، أما لنا في الحياة غير الغداء والعشاء أم أن الله خلقنا فقط لذلك ؟

ضحكت من تضمري :

- وما تفعل المرأة إذاً يا صغيرتي ، فهي لا عمل لها سوى راحة زوجها وأولادها والسهر على راحتهم .

حركت يدي في الهواء ببلاهة وقلت :

- آه يا أمي لو أنكم فقط سمحتم لي بإكمال دراستي .

- وما الفائدة يا سلمى في النهاية ستكونين زوجة وأماً الواحدة منا نحن النساء مهما فعلت ومهما عملت مردها إلى بيتها وزوجها وأولادها .

- ومن قال لك إن المرأة خُلقت لهذا فقط يا أم مسعود الكثير من النساء من عملت وتعمل ، وحتى

أصبحت ملكة وحاكمة .

لا تحكمي على النساء من منظور واحد يا حجة .

- حسناً يا سلمى حسناً دعينا من كلامك وتعال ساعديني . سكت وأنا أقوم بالعمل المعتاد من تجهيز الطعام ونقله إلى الطاولة بانتظار أخي سامر ووالدي .

مضى اليوم بطوله بين نقاش وجدال والدي وأخي عملي في المطبخ لكن طيف مختار لم يفارقني بخاصة علمي بمغادرته صباح اليوم التالي .

كم تمنيت أن يتوقف الزمن في تلك اللحظة لكن تسير الأيام .

قد سافر مختار ولا أعرف عنه أي شيء حتى جاءني منه اتصال بعد عشرة أيام يخبرني بها عن حاله ويطمئن قلبي المحترق .

هدئت روحي وبدأت أعد الأيام يوماً وراء يوم دون أن أعي بالعاصفة التي بدأت بالاقتراب من حياتي .

-5-

خرجت من البيت وأنا أحمل حقيبتي الجلدية ، حملت فيها بعضاً من حاجياتي ودعوات والدتي وجبال من الذكريات ، سرت في شوارع المدينة مودعاً مغادراً في الصباح الباكر ولم أصل إلى وجهتي حتى المساء .

كنت قد أخذت عنوان أحد أصدقاء والدي في العاصمة كان رجلاً أشيب الرأس تتخلله مسحة جميلة في وجهه رغم كبر سنه ، فقد كان عمره يقارب الخمسين .

بعد نزولي من سيارة الأجرة التي أقلتني من المحطة أبلغته باسمي واسم والدي فسرَّ كثيراً وقدم لي الشاي الساخن .

جلست وسألني عدة أسئلة عن مدينتنا ، كنت متعجباً من معرفته تلك التفاصيل عن مدينتنا فقد كان وكما

بدا لي للوهلة الأولى رجلاً غنياً يملك محلاً ضخماً لبيع الأشياء القديمة من كؤوس نحاسية وأباريق قديمة وفخاريات وثريات قديمة وغيرها وأشياء و أشياء من التراثيات ويقصده الكثير من السياح لاقتناء بعضها لم يكن يخطر لعقلي وجودها حقاً . لديه سيارة كبيرة أمام محله ويرتدي من اللباس أفخمه وأنظفه .

كانت شخصيته توحي للناظر إليه للوهلة الأولى أنه ارستقراطي من الدرجة الأولى فقال بعد وضع كأس الشاي أمامي :

- أضن أنك متعب ؟

هل لديك مكان تنام فيه أم ماذا ؟

تلعثمت في حرج وقلت :

- كلا يا سيدي فانا لم أزر المدينة قبل اليوم ولا أعرف مكانا أذهب إليه .

- توقعت ذلك ، لا عليك أشرب كأسك الآن وبعدها سأطلب طعاماً من المطعم القريب ثم ندخل

لترتاح .

شكرته على لطفه فنهض وسار بي داخل المحل الفخم .

كان ردهة كبيرة يقارب حجمهاً بيتاً كبيراً ، صالة واحدة يتخللها رفوف وممرات تقسمها إلى أقسام وفي أخرها كان يقبع باب خشبي ، فتحه ودخل فدخلت خلفه فإذا بها غرفة متوسطة الحجم لها نافذة وحيدة مطلة إلى زقاق ضيق .

فيها سرير لشخص واحد وأمامه طاولة صغيرة وكرسي وحيد بالإضافة إلى حمام داخلي يفصله عن الغرفة باب حديدي.

كانت غرفة لشخص واحد .

قال السيد عمران :

- هذه الغرفة لك تنام فيها ريثما تجد لك سكناً يناسبك أما عن العمل فلك أن تختار إما أن تعمل معي في محلي هذا إن كان يناسبك أو تبحث لك عن عمل آخر الخيار لك ، إن والدك له فضل علي ولن أنساه ما

حييت .

غادرنِ بعد إحضار طعاماً من المطعم المجاور.

أغلق باب محله وتركني فيه مع دهشتي وذهولي لحال هذا الرجل .

نمت متعباً ولم اشعر بنفسي حتى جاء فاتحاً محله فأخبرته بأني سأعمل عنده ريثما تصدر نتائج امتحاناتي .

رحب بي وأطلعني على أسعار القطع التراثية وما أنواعها ومن أين نبتاعها ومن ثم لمن نبيعها فقد كان محله مكان استقطاب السياح والزوار الأجانب قبل العرب ، لما فيه من قطع فنية باهظة الثمن وتحوي على رونق و جمالية خاصة .

بقيت عند السيد عمران أعمل بجد مطيعاً لجميع أوامره وتعليماته رغبة مني تعلم تلك المهنة من جهة وحرصاً على نسيان فراقي لسلمى فقد بدأ يعصف بي .

كلمتها بعد عشرة أيام كانت فرحة جداً لسماع صوتي وأنا مثلها وعرفت منها بهدوء أيامها وخلوها من أي

معنى للحياة قبل سماعها صوتي .

أغلقت الهاتف على صوت السيد عمران منادياً لي وحين اقتربت منه طلب أن أحظر إبريق الشاي وأجلس معه أمام محله ، ففعلت بابتسامة عريضة وجلست أحدق بالمارَّة أمامنا .

أناس كثر صغار وكبار ، شبان و شيبان ، فتيات صغيرات ونساء كثيرات كان المكان مكتظاً بشكل مستمر .

قال وهو يرتشف رشفة من كأس الشاي أمامه :

- أخبرني يا مختار هل أنت مرتاح بالعمل معي ؟.

ابتسمت وأومأت برأسي قائلاً :

- نعم يا سيدي فالعمل معك مريح جداً كما انه ممتع لكثرة ما نصادفه من أشخاص بشكل يومي مما يجعل نهارك بعيداً عن الملل والفتور .

- هذا ما كنت أريده يا مختار ، شاب قوي مثلك يدرك ماذا يفعل ويستمتع بالعمل ، ربما ليس العمل

الذي كنت تتمناه لكن عليك يا بني أن تحب العمل الذي تقوم به حتى تحقق هدفك وتعمل ما تحب .
نظرت إليه بامتنان وأومأت برأسي موافقاً وأمعنت النظر إلى المارة في الشارع .
مرت الأيام متوالية متشابهة و صدرت نتائج امتحاناتي كنت قد حصلت على علامات ممتازة وتم قبولي في الجامعة قسم الهندسة المدنية ، القسم الذي نصحني به السيد عمران .
أصبحت اذهب إلى الجامعة صباحاً وبعد الظهيرة اعمل في المحل حتى المساء وأعود إلى السكن الجامعي فبعد قبولي في الجامعة انتقلت بسكني هناك .
كانت تجمعني الغرفة بشاب حنطي الوجه تشوبه ذقن خفيفة و شارب مريح المعاملة فيه مسحة ريفية .
كنت كل فترة أعود إلى مدينتي لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، أطمئن على والدتي وأخوتي وأرى سلمى علّي أشفي ظمأ شوقي .

كان روتين أيامي حتى انقضى العام الدراسي الأول من الجامعة .

كنت قليل الاختلاط بزملائي في الفصل ولا أتقرب من أحد فقط دراستي وحبي لسلمى وعملي عند السيد عمران ، لم أكن أريد حتى الانخراط بحياة الجامعة على الرغم من العالم الواسع التي تقدمه الجامعة والمجتمع بجميع شرائحه و بعض المشاكسات التي ألاقيها من بعض من زميلاتي في القسم ، بخاصة نور .

فتاة تمتلك من الجمال الشيء الكثير عريضة الوجه براقة العينين بشفاه قرمزية وشعر أصفر يحاكي شروق الشمس بجماله .

كانت تجلس بقربي في مقعدي وتحاول دائما أن تحدثني بأشياء عنها وعن حياتها ، كنت أشعر بنظراتها تخترق داخلي ، لكني لم أكن لأخون حبي لسلمى ولم أسمح لحبها ولقلبها أن يخترق غمار قلبي .

الحب ليس نزوة أو لحظة ، إنه أعمق من كل هذا

الحب أن تستعف عن كل نساء الدنيا وتحافظ على نفسك من أجل من تحب وقد حاولت مراراً وتكراراً أن أبعدها عن حياتي .

كنت أسير في الجامعة فلاحظتنِي من بعيد ، فلحقت بي ، رأيتها لكني لم أكن أريد الحديث معها ، كنت أسير مبتعداً عنها ، لم أكن أريد أن أسبب لها الأذى فأشحت بنظري عنها وأكملت طريقي .

سارت خلفي حتى أدركها التعب ، فأشفقت عليها وأدرت وجهي

قالت وهي متعبة :

- مختار كيف حالك ؟

أجبتها بصوت اجتهدت أن يكون جامداً خالياً من العواطف :

- أنا بخير يا نور وأنت ؟

- بخير والحمد لله ، وددت فقط أن أطمئن عليك .

كانت تنظر إلي بعينيها العسليتين وكل ذرة في كيانها

تترقب التفاتة مني نظرت إلي تبحث عن ذلك البريق الساحر الذي يطل من عيون العاشقين وتلك اللهفة التي تدل على اشتياقي لها ، تلك النظرة التي تعني اهتمامي بها ، تبحث عن أي علامة أو أشارة لنبض قلبي ، كانت تعد كلماتي على أصابعها وتتفحصها علها تجد فيها كلمة قد تفتح لها فرجة أمل في هذا الجدار المنيع الذي وضعته بيني وبينها .

شعرت بدقات قلبها تتواثب بين ضلوعها ، بينما أنفاسها تتلجلج في صدرها ، لست ادري إن كانت من تعبها أم من شوقها ، فقلت :

- لما تتبعيني يا نور ؟

- أنا خائفة يا مختار .

اتسعت عيناي وسألتها باهتمام

- ممن تخافين يا نور ؟ هل أذاك أحد ؟ أخبريني .

فقالت على استحياء :

- لا يجرؤ أحد على إيذائي يا مختار .

- مما تخافي إذاً ؟

- أنا خائفة من الامتحانات فقد أصبحت على الأبواب .

- أهذا ما يخيفك ؟

عقدت حاجبيها الرقيقتين وقالت :

- أشعر دوماً بالتيه والخواء يا مختار ، وكأني في صحراء خاوية ، كل من حولي لم يشعروني بالأمان ، أشعر فقد بالأمان عندما أراك .

فقلت بحزم :

- لا بد أن تكوني قوية يا نور ، اعتمدي على نفسك واعتبرِ مختار غير موجود في حياتك ، اعتبرِيني متُّ ودفنت .

شهقت وقاطعتني بانزعاج وبدأت يداها ترتجفان :

- كيف تقول هذا أرجوك لا تكررها .

طأطأت رأسها وقالت بانكسار :

- يبدو أني ضايقتك برؤيتك لي .

شعرت بالحرج منها وقلت :

- أقصد أن تكوني قوية يا نور ، الحياة صعبة وغامضة ولا نعرف مصيرنا فيها .

تعانقت نظراتنا لبرهة ، فهربتُ منها وأشحت بوجهي عنها فقالت :

- لا تقلق علي يا مختار سأكون بخير ، وسأصبح قوية .

ابتسمت لها فقد كنت أشعر أنها تتحول إلى طفلة بريئة أمامي رغم ما أراه من معاملتها لزملائي في الفصل من قسوة وتنمر .

تراجعت خطوة للوراء معلنة انصرافها وقالت بخجل :

- متى سأراك يا مختار ألن تدخل إلى المحاضرة القاعة موحشة بدونك .

– لا أرغب بحضور المحاضرة اليوم .

– لماذا ؟

غضنت حاجبي وبدا علي الضيق من محاصرتها .

فشعرت بالحرج واستدارت وسارت مبتعدة عني

كان يؤلمني أنها تحبني ، ولا أدري ما عليَّ فعله لأوقف شلال المشاعر الذي كان يتدفق من صوتها وعينيها وكلماتها ونظراتها كلما اتقيت بها .

من الصعب أن أتعامل بلطف مع شخصٍ يحبني بينما أنا أبادل الحب غيره .

أنا في حيرة دوماً من أن يضن معاملتي له بلطف حباً وأنا في الحقيقة أكنُّ له الاحترام والتقدير فقط ، ولا أحبه بالطريقة التي يضنها في نفسه أو أخشى أن أبدي له محبتي عند اهتمامي به ، فيشجعه هذا على الاستمرار بحبي والسعي إلي .

أنا أريده أن يتوقف عن ذلك الحب فأقطع عليه الطريق ، يشعرني ذلك بالضيق وأفكر بطريقة لإبعاده أو أخاطبه بطريقة غليظة لينفر مني ، أو يكرهني ، أو حتى ينصرف وينساني غاضباً لكرامته المهانة ، فأبدأ بإيذائه بفعل أو بكلمة ، وعندما ينصرف جريح الفؤاد أشعر بالذنب ، لن أنسى نظراته ، وحزنه ، وانكساره

وارتجاف كفيه ، وتعرقه وهو يواجه الصدمة التي قدمتها له .

سأسأل نفسي مراراً وتكراراً لماذا أفكر فيه ؟

هل تعلقت به ؟ أم هو مجرد تعاطف ؟ أم هو الحب لكني لا أعلم ، وأخيراً تهدأ العاصفة في قلبي ويكاني عندما يتردد كلام في عقلي أنَّ هذا هو الأصح والأسلم لي وله .

قد نكون قساة لنغلق الطريق على أناس يرغبون فينا ولا نرغب فيهم حتى لا تضيع حياتهم هباء وهم يسعون ورائنا ، قد يتصدعون أحياناً من داخلهم لكن تلك الصدوع والأوجاع ستشفى حين يبرؤون منا والزمن كفيل بشفاء جروحهم ، والحب ينزح الحب هذا ما كنت أرجوه لنور .

سالت دموعها وهي تبتعد عني ، تشعر أحياناً أنها تتسول الحب مني تسولاً ، و الحب لا يأتي بالشفقة ولا التسول .

هكذا نحن البشر نُخطأ ثم نعود ، نخطأ مرة أخرى ونعود .

ندمتْ على ما بدر منها وحاولت الابتعاد عني مراراً وتكراراً ، فهي تعلم أن قلبي متعلق بغيرها ، لكن هذا هو حال الحب .

أيام مضت وقد زارني مازن في العاصمة ، كنت فرحاً جداً لزيارته فكم أشعر بالسعادة وهو معي ، وبعد جلوسنا في المطعم لاحظت فتوره على غير عادته فقلت ضاحكاً :

- مازن ؟ أين ابتسامتك يا رجل ؟

هل أثر فيك التعب ؟ ألم تشتق لي يا رجل ؟

وضعت يدي على يده وأنا سعيد بقدومه ، فأجفل من يدي ونظر إلي نظرة حزن وقال :

- لا شيء فقط أنا متعب من عناء السفر وابتسم ابتسامة خفيفة .

- لا عليك يا صديقي سنذهب إلى سكني لترتاح

عندي وبعدها نتكلم .

- لن استطيع المبيت جئتك في أمر وعلي العودة في المساء .

فقلت وقد بدأ الشك يصيب قلبي من شكل وجهه :

- أي أمر يا مازن اخبرني هل حدث مكروه لأمي أو أخوتي ؟

- أهلك بخير يا مختار لكن سلمى .

سكت ولم يكمل ففار الدم في عروقي وبدأ العرق يتصبب من جبيني :

- سلمى ؟ ما حالها يا مازن هل حدث لها مكروه ؟.

- لقد خطبت سلمى .

ران صمت في المكان ، عيني تعلقت في الفراغ وأطبق المكان على صدري ، فلم أعد أشعر بنفسي إن كنت موجوداً أم لا .

لا حياة للحبِّ ولا سعادة بعد اليوم ، قد سُميت ملاكي لإنسان أخر ، كيف تُخطب سلمى ؟

ومن خطبها ؟ وكيف وافقت ؟

كيف تكون لإنسان أخر ؟ وكيف و كيف وكيف ؟

أسئلة بدأت تحفر في عقلي كمعول كبير ، والصداع بدأ يسري في رأسي ودمعة هاربة قد بللت خدي مسافرة إلى اللا وجود ، فقلت بانكسار :

- خطبت ؟

لا تمزح معي أرجوك قد كلمتها الأسبوع الماضي وهي على عهدنا محافظة على قلبي في سجنها .

أنت تمزح ، أكيد تمزح ، سلمى لم تُخطب ، قل لي إنك تداعبني يا أخي . امسك بيدي ونظر بعيني نظرة عطف وقال :

- عليك أن تتحلى بالصبر يا مختار هكذا هي الدنيا ، لم أكن أتمنى أن أكون أول من يخبرك ، لكن إلحاح والدتك وخوفي عليك هو من جعلني آتي لأخبرك فقد خطبت سلمى منذ ثلاثة أيام ، أجبرها والدها على القبول كما أخبرتني صفية .

نهضت من موضعي مذهولاً محطماً تموج الأرض تحت قدمي ، وسرت خارجاً من المطعم إلى اللا معلوم تسوقني قدماي المرتجفتان دون أي هدف ، فتبعني مازن وسار بجانبي دون أن اشعر به أو أراه .

هل يمكن أن يكون الإنسان حياً دون الشعور بالحياة ؟.

هل يمكن أن نجرح دون الشعور بالألم ؟

هل يمكن أن يكون العقل سابح في الفراغ ؟

أشعر بلا شعور ، سرت وسرت ومازن يجاورني دون كلام ، فهو يعلم أني لن اسمعه وحتى إن سمعته لن أجيب .

وصلت إلى غرفتي ودخلتها ، فتحت حقيبتي وبدأت أحمل أغراضي ، فقال :

- ماذا تنوي أن تفعل هل ستعود إلى المدينة ؟.

هززت برأسي وقلت :

- أنا عائد يا مازن .

- لكن يا مختار ما النفع من عودتك ؟

لن تستطيع فعل شيء .

- ليكن سأعود .

حملت حقيبتي على ظهري وخرجت ، نخرج مازن خلفي ، كان طريق العودة طويلاً وطويلاً ، الطريق الذي كنت أطير من الفرح حين أسير فيه عائداً إلى مدينتي ، قد حفظت فيه كل شيء ، حتى التفاصيل الصغيرة حتى محلات البقالة المنتشرة على جانبي الطريق ، والقرة الصغيرة المتناثرة ، والأطفال التي تلعب في الملاعب الترابية ، كلها كانت جزئاً لا يتجزأ من ذلك الطريق ، أما الآن فلست أشعر بشيء حي كل شيء متوقف ، كل شيء جماد ، حتى السماء لا أشعر بها ، فقط أشعر بارتفاع أنفاسي ولمسات خفيفة كانت تجفلني من يده بين الحين والآخر ليهدأ من روعي .

كان جليس جسدي أما روحي لم تكن موجودة

كانت تسبح في ذكرياتي مع سلمى تداعب وجهها وتحاكي عينيها ، فصاحبني الشرود حتى وصلنا .

نزلت من الحافلة وأول شيء كنت أريده هو رؤية سلمى ، لكن مازن منعني من ذلك ، فقد وصلنا بعد منتصف الليل ولا يمكن اللقاء بها في هذا الوقت وأي محاولة مني يمكن أن تتسبب مشاكل لا تحصى فأوصلني إلى البيت ، وحين دخلنا ذهلت والدتي برؤيتي فقبلتني وبكت بحرقة فقلت :

- ما بالك يا أم مختار لما البكاء هل اشتقت لي بهذه السرعة لم اغب عنك سوى شهر واحد .

قبلتها على جبينها وحضنتني ، ثم خرجت رزان من غرفتها فعانقتني هي الأخرى بحفاوة كأني خارج من السجن ، ثم نادت والدتي على أخي ريان فجاء معانقتاً عناقاً طويلاً لم أكن أحسبه سينتهي .

هناك أمر ما فيهم ، ولست أفهم ما هو ، اعلم مكانتي ومحبتي في قلوبهم لكن هناك شيء لا أدركه ، فنظرت

إلى مازن مستفهماً ، هزَّ رأسه فعلمت أنهم يعلمون بحبي لسلمى على الرغم من عدم إخباري لأحد .

أمسكت بيدها وجلسنا في الصالون ، فجلست بجواري وقالت باكية :

- سامحني يا عين أمك لم أستطع أن أفعل شيئاً .

نظرت إليها مستفهماً فأكملت :

- لا تستغرب يا بني ، فقد زارتني صفية منذ خمسة أيام ، وأخبرتني بحبك وسلمى ، و لطالما كنت أشعر به داخل قلبك ، فنحن الأمهات لا يمكن أن تغيب عنا مشاعر أبنائنا حتى وإن لم يتحدثوا بها .

زاد بكائها كأنها فقدت للتو والدي وأكملت :

- حاولت أن أمنع تلك الخطوبة ، فبعد أن أخبرتني صفية بأن هناك أحداً سيخطف منك حبيبتك طلبت من مازن أن تذهب معي إلى بيتها وقابلت والدها .

أنكست رأسها وسكتت ، فازداد توتري أضعافاً وقلت

- ثم ماذا يا أم مختار ؟

بان الانكسار بعينها وقالت :

- لم يحدث شيء يا بني ، كله فداء لعينيك الغاليتين حاولت مع والدها لكنه مانع ذلك .

وضعت رزان يديها على كتفي وقالت :

- لا تحزن يا أخي كله مقدر من الله .

نظرت في عيني أمي وقلت :

- لا تحزني يا أم مختار فما كتبه الله لن يبدله بشر قط .

نهضت داخلاً لغرفتي تاركاً معهم مازن فقال :

- دعوه يرتاح قليلاً ولا تخافوا سيكون بخير ، لا بد أن يتخطاها ، وحمل نفسه وغادر .

سكن الليل ، وكم كان الليل طويلاً بأفكار تأخذ روحي وأخرى تعود بها قد أصابني أرق لم أكن أحسب لروحي فراقه حتى اقتراب الفجر ، حيث أخذتني غفوة بسيطة أجفلت منها حين دخلت رزان إلى غرفتي راغبة في الاطمئنان علي ، كنت قد تحسنت قليلاً ، و وقع الألم على روحي بدأ يعتاده

جسدي، فلبست ثيابي وخرجت عازماً على لقاء سلمى لكن كيف وأين لم أكن أستطع التفكير ، فذهبت إلى بيت مازن علي أطلب من صفية أن تكلمها .

فتحت صفية الباب ودعتني للدخول ، فحملت ملك الصغيرة التي كانت قد بدأت تخطو أول خطواتها ورفعتها عالياً فوق رأسي ثم وضعتها في حجري وجلست بجانب مازن ، لاح عليه شبح ابتسامة باهتة ، فقد كان يعرف أني أمثل القوة وإن روحي قد تبعثرت في أرجاء المدينة وأصبحت كأوراق شجرة البلوط في خريفها الطويل ، فقال بهدوء :

- كيف حالك اليوم يا مختار ؟

أومأت برأسي بهدوء مماثل كأنما الطير فوق رأسي واكتفيت بالسكوت

- اعذرني لم أستطع أن أفعل لك شيئاً .

- لا عليك ، الذنب ليس ذنبك وليس الوقت مناسباً للعتاب الآن ، لكن أريد أن تخبرني بتفاصيل ما

حدث ، ومن خطب سلمى ؟

هل أعرفه وهل وافقت سلمى عليه أم تم إجبارها ؟

فقط أريد أن أعلم ما الذي حدث .

نظر إلى صفية وأشار إليها فهي أكثر صلة بسلمى منه فقالت :

- سأخبرك ، لكن قبل كل شيء أريدك أن تعلم أن سلمى لم تتخلى عن عهدها معك ، فقد كانت كما تعلم تحبك حباً لم أكن احسب أن أي امرأة تحب كما أحبتك ، وكم كنت أحسدك على امتلاكك قلبها .

كانت تحدثني لساعات وساعات عنك وعن أحلامها بقربك ، لكن كان للأقدار مشيئة أخرى ، فقد اتصلت بي منذ خمسة أيام ، كانت فرحة جداً حين أخبرتني أنك كلمتها وأن روحها قد سقيت بسماع صوتك ، لكن ما حدث بعدها قد غير كل شيء .

سلمى

أقفلت الهاتف بعد حديثي مع مختار ، وقد كان قلبي يكاد يطير فرحاً فمختار هواء روحي ودوائها ومائها فبعد قراره بالسفر للعاصمة حزنت كثيراً وكثيراً ، وكان عزائي الوحيد اتصالاته كل فترة ، وزياراته القليلة التي من خلالها كان يتسنى لي أن أراه مرة على الأقل

كانت الأيام تجري بهدوء وسلام دون مشاكل لكن الحياة لا تسير بتلك الطريقة ففي ذلك اليوم كنت في غرفتي أنا وسمر ، فقد أنهت دراستها و انصاع والدي لرغبة خالي أحمد وأخي سامر وسمح لها أن تكمل دراستها الثانوية بعد أن أحرزت نتائج ممتازة في الإعدادي .

نادتني والدتي وقالت :

- أباك يريدك يا سلمى أعدي له الشاي والحقي بي إلى

غرفة المعيشة ، فأومأت برأسي ونهضت من فوري فقد كنت أشعر بنشاط كبير ، وحيوية تداعب روحي بسبب اتصال مختار لي صباح هذا اليوم

قدمت الشاي لوالدي ووالدتي وجلست بجانبها أنظر شاردة إلى البخار الصاعد من تلك الكؤوس ، أرسم فيها أحلامي مع حبي مختار حتى قطع شرودي كلام والدي الذي قال بهدوء :

- سلمى قد تقدم لخطبتك أبا منصور ، وقد وافقت على خطبتكم وستكون الخطبة بعد غد ، ونظر إلى والدتي وأكمل :

- خذي ما يلزمك من نقود واذهبي معها غداً لتحظري ما تحتاجه من لباس أو لوازم ليوم الخطوبة .

ذهلت والدتي مما قاله وقالت :

- ما الذي تقوله يا أبو مسعود أبا منصور يخطب سلمى

- نعم يا أم مسعود وما الذي يعيب الرجل ، هل نسيت أنه من كبار تجار المدينة .

- لم أنسا لكني أضن أنك نسيت أن سلمى في العشرينات ، وهو عمره يقارب من عمرك بل ربما أكثر .

- اعلم ذلك يا أم مسعود لكنني احتاج شراكته في التجارة ، وقد طلب مني مقابل دعمه الزواج بسلمى وأعطيته كلمتي ولن أتراجع .

نهض غاضباً وذهب إلى غرفته ، فأمسكت بيدي والدتي ولم أشعر بلمستها حتى ، فقد طاف في عقلي ما تحدث به ، وشعرت نفسي تعوم في فقاعة ضبابية انعدمت فيها الرؤية ، جلُّ ما كنت أراه وأشعر به هو مختار ، كيف التقينا ،و ابتسامته ، وضحكاتنا ووداعنا ولقائنا ، وكل اللحظات الجميلة التي عشناها ، كلها لاحت أمام ناظري كشريط فلم يعرض على السينما وأين أنا من كل ما قاله والدي ؟

إنها لحظة فراقي للحياة .

نظرت إلى عيني والدتي الباكية بعين لا ترمش حتى

قد توقفت عن الحياة ، فوضعت يدها على رأسي ومسحت شعري ، ثم مسحت عيني و وجهي بكفيها سحبتني إلى صدرها بحنان وقالت :

- ابنتي الغالية لا تحزني سأحاول مع والدك ، إنه يحبك ولا يمكنه أن يضحي بك مثل تلك التضحية .

عندها أدركت ما أنا فيه وأومأت برأسي مؤيدة .

نهضت دون النطق بأية كلمة ، فدخلت غرفتي وارتميت على سريري ولست أعي فقط بدموعي الساخنة التي أطلقت سراحها دون قيود ، وأفكار تأخذني وأخرى تعود بي وقررت أن أرفض الأمر حتى وإن أخذوا روحي ، فما نفع روحي بدون مختار .

مضى اليوم الأول وأنا حبيسة غرفتي لم أخرج منها وجدال طويل كنت أسمعه بين أخي مسعود وأخي سامر ، كلٌّ منهما يشد على طرف فمسعود رأيه من رأي والدي ، أما سامر فكان يرى في هذه الخطوبة مشنقتي وتضحية بروحي ، وقد دخل مواسياً لي

ومحاولاً التخفيف عني وأخبرني بأنه لن يرضى لهذا الأمر .

في المساء عاد والدي من عمله ، فحدثت مشادة كبيرة بينه وبين سامر أدت إلى طرده لسامر من البيت ودخل إلي غاضباً وقال :

- سلمى إياك والعناد ، أنا والدك واعلم بمصلحتك منك ، قد أعطيت كلمتي وانتهى الأمر أنزلت رأسي والدموع شارفت على أبوابها مغشية على عيني دون التفوه بأي كلمة ، وخرج مغلقاً للباب بقوة كادت تحطم الجدار ، فدخلت رزان إلى غرفتي وحضنتني وهي تبكي على حالي وقالت

- هذه أول مرة أرى والدي بهذه العصبية ، لا أعرف ما أقول يا أختي لكن عليك أن ترضخي وتقنعي بقدرك .

التزمت الصمت ، والكوابيس كانت مرافقتي طيلة ليلتي ، حتى حسبت نفسي أجثم في المقابر الخاوية

مضى الليل على مضض وجاء الصباح باهتا بشمس خجولة لا تكاد تريد مغادرة ليلها ، تلاه يوم طويلاً ولا زلت بسجينة غرفتي .

جاءت تلك الليلة وهي موعدا للخطوبة ، فألبستني والدتي ثوباً احمر كانت تلبسني ودموعها على وجنتيها حاولت أن أتنفس بذلك الثوب لكني لم اقدر وضاق صدري ، وقد شعرت والدتي بحالي وقالت

- يا ابنتي هذا هو حالنا نحن النساء ، كل النساء نعيش طفولتنا بدون طفولة ثم شبابنا يسلب منا سلباً دون أن نعي ماذا حدث ، ولا نشعر بحالنا إلا و قد أصبحنا ربات منازل وزوجات وأمهات .

هذا حالنا على مر التاريخ .

قلت بعد صمت يومين :

- لكن يا والدتي يمكن أن يكون الزواج ممن نحب لما نجبر على زواج بهذه الطريقة ؟

ألا يمكن أن نتزوج بمن نحب .؟ ألسنا بشر ؟

أمسكت بيدها وقبلتها وتابعت :

- أرجوكِ يا أمي ساعديني .

قبلت جبيني باكية وقالت :

- لا يمكن يا سلمى والدك وتعرفينه لن يعدل عن رأيه وسيقدم على ذبحك إن لم تفعلي ما يريد .

- قد ذبحني وانتهى الأمر ، قد انتهت روحي وقُدمت قرباناً لشيطان المال .

ربتت على يدي وخرجت ، فكرت ساعتها بالانتحار لكن مخافة الله قد منعتني ، فسلمت أمري له .

بعد ساعة جاء أبو منصور ومعه أخته ، فطلبت مني والدتي أن أقدم القهوة .

دخلت والغيظ تملكني ، كان أبو منصور يجلس قبالة والدي ، فقدمت القهوة وكدت أخرج لولا طلب والدي بالجلوس .

كنت اسمع كلامهم يتحدثون عن المقدم والمؤخر وأشعر أنهم في بازار لبيع شاة أو أثاث لمنزل أبو

منصور الجديد ، ولم أشعر بروحي من البشر إنهم يقتسمون روحي وأشلائي .

مضت تلك الساعة بصعوبة أيما صعوبة وقد اختنقت روحي بعبق أنفاس ما أسماه والدي بعريسي ، إلى جانب دخانه المتصاعد من سيكارته العريضة ودخانها المتصاعد بكثافة ، فقد كان يدخن سكائر تختلف عن السكائر العادية ، وقد رفعت إليه بنضري حين تحدث معي سائلاً أن أطلب ما أريد من ذهب وأملاك

كان أبيض الوجه مليء الخدين أشيب الشعر عريض المنكبين مرتاح الهيئة ، لم يمر عليه الزمن بوعكته فعلى الرغم من كبر عمرة إلا أنه لا زال محافظاً على مسحة من شبابه ، كرهت النظر إليه بل اختنقت روحي من قربي منه ، فاعتذرت منهم وخرجت ذاهبة إلى غرفتي وأجهشت بالبكاء ، فدارت أفكاري ويئست من حياتي :

- أعتذر يا مختار ، أعتذر يا حبيبي ، فما باليد حيلة

كيف أعيش وروحك ليست بقربي ، فالتسامح
ضعفي يا حبيبي ، فالتسامح قلة حيلتي فالتسامح
انكساري وهواني ، سامحني يا مختار فقد انتهت قصتنا
قبل بدايتها ، سامحني وسامح روحي المبعثرة ، قد
تبعثرت روحي وروحك ولن تكون هناك فرصة للقاء .
أفكار وأفكار ، خيالات وكوابيس قد صاحبت
روحي ، انتهت تلك الروح وحدثت تلك الخطوبة
المشئومة ، وقد مضت أربعة أيام طويلة من بعدها
ولست أعلم ما قد تؤول إليه الأمور ، وفي اليوم
الخامس كنت اجلس على نافذة غرفتي شاردة الذهن
واهنة العقل والروح ، فلمحت طيف مختار مقبلاً من
بعيد ، راقبته بشغف علي أهنئ روحي برؤيته من بعيد
فقد كان كلما عاد من سفره يأتي ويقف في الشارع
من بعيد .
كنت أعلم أنه ينتظر خروجي للحديقة لكنه هذه المرة
على غير عادته أكمل ودخل فناء الدار ، فهرعت إلى

الباب مسرعة أحدث نفسي :

- ماذا يفعل هذا المجنون .

-6-

ربتت صفية على يدي وقالت :

- هذا ما حدث مع سلمى يا مختار، إنها قد ذبحت حين تمت خطبتها لذلك الرجل .

أنزلت رأسي بحسرة وقلت :

- كم استغرب على مثل هذا الأب ، كيف يمكن أن يقوم احد بنحر ابنته بهذا الشكل .

قال مازن : - لا تنسى أن أبا منصور من أكبر تجار المدينة ، وأبو سلمى من هذا النوع الذي يفكر بالماديات ولا يعطي بالاً للعواطف حتى ، وإن كانت ابنته .

- أهل سلمى ليسو بفقراء ، وليسو بحاجة ،لو كانت عائلتها فقيرة لكان السبب قد يكون مقنعاً لكنهم ليسو بحاجة ليسو بحاجة .

- أعلم هذا لكنك تعلم كما أعلم أن والدها يحب المال وقد يفعل أي شيء حتى يزيد أرباحه .

- لكن كيف قبلت والدتها وأخوتها ؟

كيف قبل سامر ، كانت سلمى تحكي لي دائماً عن دعمه لها ؟

أكاد أجن كيف يحدث هذا ؟

- لست أدر ما أقول لك يا أخي ، لكن هذا ما حدث وليس بيدنا شيئاً نفعله .

فنهضت كبركان يغلي فأمسك بيدي وقال :

- عليك أن تهدأ لن يكون بيدك تغيير القدر ، فلا تثور وتفعل شيئاً مجنوناً .

هززت رأسي يائساً وخرجت تتخبط روحي حائرة ثائرة لا أعرف أين تقودني قدماي ، جل ما اعرفه حاجتها للقائها مهما كان من أمر ، لا بد أن ألتقي بها .

وصلت إلى شارع بيتهم وأكملت على غير عادتي بمراقبة البيت من بعيد فلم أكن أنا من أسير ، كانت روحي تقودني دون وعي ، فدخلت مدخل البيت ومشيت باتجاه الحديقة مكملاً طريقي إلى باب البيت ، مددت

يدي لأطرق الباب وقبل ففتح وكانت سلمى خلفه فالتقت عيني بعينها الدامعتين المرتجفتين وقالت بخفوت

- ما الذي تفعله يا مجنون ، كيف تأتي إلى هنا ؟ هل تريد ذبحنا ؟

أرجوك أرحل قبل أن يراك أحد ، أرحل يا مختار فإن رئاك أحد ستكون كارثة .

نظرت إليها والحزن قد أفاض بقلبي وقلت :

- لكن يجب أن أراك ، أريد أن أتحدث إليك ، لن أذهب قبل أن تحدثيني وليكن ما يكن .

نزلت دمعة من عينها ، وغمرتني نظرة توسل وأسف وقالت :

- سامحني يا مختار فلن استطيع هذه المرة أن أقابلك فقد علم أهلي بحبي لك ولن يسمحوا لي بمغادرة البيت إلا على بيت زوجي الجديد ، فقد أرغمني والدي على الزواج ، ويوم الزفاف سيكون بعد خمسة أيام

،ولست أدري ما سأفعل أو كيف سأعيش بعيدة

عنك .

أجهشت في البكاء وأغلقت الباب ، وضعت ظهرها على الباب وبكت بحرقة أكاد اسمع نشيجها يحرق روحي ، فعدت بخطواتي للوراء انسحبت من ذلك المكان وأنا بأشد حالاتي يأساً وغضباً وقهراً ، فسرت واهناً ماشياً إلى البيت ، ولم أكن أستطع الذهاب إلى أي مكان أخر ، فدخلته ثم إلى غرفتي و لم أخرج منها ، وباءت محاولات والدتي بمواساتي دون جدوى لم أكل أي شيء مدة يومين ، قد قررت أن أنهي حياتي على طريقتي فقط اكتفيت بلفافات السكائر والماء ولم أجب على أي اتصال ، حتى محاولات مازت بالتواصل معي قد أقفلتها بوجهه ، وأختي وأخي كلهم حاولوا إخراجي مما أنا فيه ، لكني فقدت الأمل وأصبح الأرق مصاحباً لي طيلة وقتي ، حتى كنت احسب نفسي بدوامة وحيدة ، وسجن وحيد لا خلاص منه .

مضى يومان وأنا على حالتي ، حتى دخل إلي مازن وقال :

- مختار لم أهدأ ولم أستكن لأتصل لسلمى لكني لم أفلح ، لكن أختك صفية قد استطاعت أن تقابلها وجاءت لك منها برسالة .

أخرج ورقة ملفوفة من جيبه ، فنهضت وأخذتها من يده بسرعة لأفتحها وجلست على سريري نخرج وتركني لوحدتي .

كنت متلهفاً لقراءتها ، محترقاً على رائحتها التي عبقت بداخلي إنها من حبيبتي سلمى كتبت فيها :

حبيبي مختار ، كلماتي الأخيرة سأكتبها لك أنت فوحدك من تستحق حياتي وروحي ، قد عشت بك و لك أجمل أيام عمري ، حبيبي الغالي يا أجمل أيامٍ قضيتها و آخر أيام حياتي ، ربما لم يكن من حقي أن أكتب كلماتي ، وربما لا يحق لي حتى أن أفكر فيها فقد أصبحت ملكاً لأحدٍ غيرك ، لكن كان لا بد من

كلماتٍ يجب أن تعرفها ، فالشعور المرير بالأخطاء الكثيرة التي أخطأتها بحقك ، والتقصير الكبير الذي بدر مني بحبك ، بالإضافة إلى الأيام العصيبة التي عشتها بسببي ، والألم ، آه من الألم الذي أشعر به و سببته لك .

شعور بالانهيار بدأ يحيط بي ، وفراقي الأبدي أصبح مأساتي ، بل هو قاتلي لا ريب ، وقد قررت أن أبحث عن راحتي ، وأن أودع سعادتي و حياتي ، ولن أقوم بهذا لأجلي فحسب ، إنما لأجلك وأجل حبنا الغالي لأجل كل عشاق الدنيا ، لأجل عصافير الشوق وزهور الحقول ، لأجل شمس الغروب و قمر الصيف فلن أحيا بدون حبك الغالي .

هذا قراري فإن ودعت حياتي و سافرت روحي بعيداً عنك فاعلم إني أحررك من عهدي الأبدي وأمنحك حريتك مني ومن حبي .

إنَّ روحي لست راغبة إلا أن تتذكرني وأن لا تنسى

حبي ، فلا أريد لحبي أن ينسى ولا لأسمى أن يغيب فلتعش حياتك ولتسعد يا حبي ، وسامح ضعفي و روحي على خوفها ، فلم أقدر على الحديث معك أخر لقاء لنا فقد كنت أنانية لم أفكر إلا بنفسي وخوفي ولم أستطع تخفيف أحزانك وآلامك وأنا شاكرة لك من قلبي ، أشكر كل لحظة سعادة عشتها بحبك وبقربك فأنت سعادتي وهنائي .

مختار ، أريد أن أطلب منك أمنية أخيرة ، أريدك أن تكون قوياً في مواجهة الحياة وأن تكون سعيداً و لا تنساني ، فقط لا تنساني ، وأعلم إني أحبك ، للأبد أحبك . حبيبتك سلمى .

ما الذي يحدث ، لما كتبت سلمى هذه الكلمات ؟

هل ما اشعر به يمكن أن يكون حقيقة ؟

هزت كلماتها طيات روحي فوضعت الورقة على وجهي أشتم عطرها فنزلت دموعي ، إنها تريد أن تنهي حياتها .

لا تفعلي يا سلمى ، فقد يكون هناك أمل ، أفكار تدور برأسي وكلماتُ أحدث بها طيفها ، إنها روحها التي ترافقني ، فقبل نومي تمسح على شعري وتغازلني وحين يجافيني النوم تهمس في أذني لأستريح .

مضى اليوم الثالث والرابع دون تغيير ، أيام ثقال بزمن متوقف وأنا على حالي بغرفتي دون طعام أو شراب إلا ما كانت تجبرني عليه أمي بعد بكائها ونحيبها أكثر من مرة .

كانت سلمى تعد الأيام حبيسة بيتها تحترق روحها بنار بدأت تأكل أحشائها فقد حبسها والدها في غرفتها بعد أن علم أننا على علاقة سخيفة كما أسماها ، فقد أخبرت والدتها بحبنا ضناً منها أن تستعطفها ، فتقوم بإقناعه لكن دون جدوى كان مصراً على موقفه .

في اليوم الذي يسبق يوم الزفاف ذهبت والدتي هي ومازن إلى بيت سلمى دون علمي ، وحين دخلا وجلسا مع والد سلمى قال مازن بتوتر :

- عمي أبو مسعود هذه أم مختار ، وقد أصرت أن تقابلك .

نظر إليها باستحقار وقال :

- إذاً أنت أم ذلك الولد التافه الذي أغوى ابنتي .

فركت يديها بتوتر وقالت :

- لما تقول مثل هذا الكلام ؟

ولدي ليس تافهاً و لم يغوي أحداً ، إنه أحب ابنتك وأضن أن الحبَّ ليس سيئاً بهذه الدرجة التي تتصورها

- حب ؟ أي حب تتكلمي عنه يا امرأة ؟

ليس هناك حبٌّ في عائلتنا ، المال وحده من يصنع البيوت وليس هناك حب ، هناك فقط المال والمال .

- لكن ابنتك وولدي يحبان بعضهما ، فارحمهما واعطف عليهما إن لم يكن لأجل ابني فلأجل ابنتك .

هز رأسه غاضباً وقال :

- ابنتي ستتزوج غداً وستنسى ابنك ، قد اخترت لها عريساً سيمنحها كل ما تتمنى وتطلب من قصر وسيارة

وذهب وأموال ، فماذا يستطيع ابنك أن يقدم .

- سيدي ربما نحن على حالنا ، لكن اعلم أنَّ السعادة ليست بالمال و البيوت تبنى بالحب وحده ، وبدونه لن تكون هناك حياة .

قام من موضعه واقفاً وقال :

- المال وحده يمنح السعادة ، انتهت المقابلة .

وأشار بيده إلى الباب .

نهضت والدتي بانكسار ، وخرجت برفقة مازن الذي حكا لي ما حدث وذهابهم دون علمي ، فلمته كثيراً لكني أعلم مدى حبه لي وخوف والدتي علي وشعرت بالذل لأول مرة بحياتي مما لاقته والدتي بسببي

واعتذرت منها لما لاقته فابتسمت وقالت :

- وما نفع الأم وحب الأم إن لم تتحمل لأجل أولادها وأحبابها .

قبلت رأسها وغادرت غرفتها عائداً إلى غرفتي

ومضت ليلة كئيبة أخرى كليال حياتي التي بدأت

تتشح بالسواد ، وجاء صباح متعب مغبر الأركان يشوبه مسحة حزن ، و شمس خرساء وخيوط الفجر المتعبة وحتى العصافير استفاقت متعبة لم تستسغ إسماع صوتها الأصم ، دقات الزمن قد توقفت ، كلُّ ما هو حولي جامد ساكن لا حراك فيه .

كان الوقت يسير كمسير شيخ على حافة قبره ، ومضت ساعات النهار الطويل عجافاً حتى بعد الظهيرة فخرجت من غرفتي والإصرار في عيني أريد وداع سلمى الأخير فقد قررت أن أرى حبيبتي في موكبها الأخير .

حاولت والدتي أن تثنينِ عن قراري و لم تستطع فخرجت باتجاه بيت سلمى بخطىً باردة خاوية من الحياة ، أردت أن أرى قلبي الممزق وروحي وهي تسير في أكفانها ، كنت دائماً أعد اللحظات والثواني لأرى سلمى بثوبها الأبيض ، أما اليوم هي تلبس أكفانها وأكفان روحه .

وصلت ونظرت من بعيد ، كانت الأهازيج والتهليلات

والتبريكات تعم المكان فنظرت من مكاني والألم يعتصر قلبي .

ظهرت سلمى مكفنة تسير بجسد دون روح منساقة إلى قبرها القاتم الأسود ، وملامح الموت بانت على وجهها

ما ذنبك لتلقي مثل هذا المصير ؟

ما ذنب قلب رقيق كقلبك أن يلاقي هذا الألم ؟

لما كل هذا ؟

ما ذنب فراشة مثلك أن تلقى ناراً تحرقها ؟

ما ذنب عصفور يساق إلى قفص وسجن أبدي ؟

وما ذنب حبي وحبك حتى يلقى موته وهو في ريعان شبابه ؟

ما ذنبي أن أكون فقيرا ؟

فقط لأني فقير ألاقي هذه الميتة .

أسئلة وأسئلة دارت في داخلي ، ولم أشعر بروحي حتى أجفلت من يد لامست كتفي ، فنظرت فكان مازن قد لحق بي وأمسك بيدي ، فسار بي بعيداً عن

المكان ، وران صمت علينا ونحن نسير بتؤدة ، حتى وصلنا البيت فأخذتني والدتي بحضنها وبكت ، ثم مسحت على رأسها وقلت :

- لا تحزني يا أم مختار سأكون بخير هذه هي حال الدنيا ، وكله مقدر من الله سأدخل إلى غرفتي أعد حقيبتي ، قررت السفر والعودة إلى جامعتي وسيتكفل الله في نسياني لسلمى ، وهو قادر على كل شيء .

أومأت والدتي برأسها مؤيدة وقالت :

- يفعل الله ما يشاء يا ولدي عليك بالصبر والإيمان وادعِ لسلمى أن تكون سعيدة هذا هو قدركم يا بني .

قبلت رأسها ودخلت غرفتي لأستعد للرحيل ، كنت اصبر نفسي على مصابي ،وأريد الهروب من واقعي ، صممت على النسيان ، فلا سبيل للخلاص غيره ، وعسا أن يجعل الله لي مخرجاً ، لكن للقدر أمور أخرى قد يضعها في طريقنا لا يمكننا الهروب منها ، فقبل منصف الليل بقليل طرق على الباب طرقات قوية

فزعت من مكاني وخرجت لأفتح .

كانت سلمى ترتجف عند الباب ، فذهلت كما هي حال والدتي وكل من في البيت من وجودها ، دخلت خائفة واختبأت في حجر والدتي وهي تبكي فنظرت إليها وقلبي يعتصر ، فقد فهمت ما يدور بخلجاتها .

أمسكت بيدها ودخلنا غرفتي لوحدنا ، جلست قبالتها وقلت :

- سلمى ماذا فعلت بنفسك ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟ سوف تصلبي وأنت حية .

رمقتني بنظرة كلها معنى ولم تتكلم بحرف واحد ، و شعرت برجفتها وصلت لقلبي فقلت :

- لا تستغربي كلامي ، فإن كان حبي لك أغلا ما أعيش لأجله ، فإن شرفك وحياتك هما روحي نفسها .

قالت وهي تنكس برأسها ناظرة إلى الأرض :

- لكن يا مختار شرفي وكرامتي وحياتي وحتى روحي أنت .

رفعت رأسها وقلت :

- سلمى أنت الآن قد تزوجت وانتهى الأمر ، فقط لأني احبك أقول هذا لا بد لنا من الانصياع للواقع لن أقول ننسى لكن ما باليد حيلة .

غرقت عيناها بالدموع وقالت :

- لا تفعل هذا بي يا مختار إن أهلي قد نحروني وقدموني قرباناً لآله المال والمادة وأنت الآن تريد أن تصلبني وتعيدني إليهم لتكمل على روحي ، أنا الضحية الوحيدة بينكم .

ران صمت في المكان لا يتخلله سوى أصوات أنفاسنا الحارقة وشهقات سلمى وبكائها فقلت :

- أنت تعلمي كم أحببتك ولا زلت أحبك وسأضل أحبك حتى زوال روحي ومفارقتها الجسد ، وفراقنا هو العذاب الوحيد الذي سيقتل تلك الروح . لم اعد أستطيع التنفس من فرط التوتر وانقطعت السبل أمام ناظري من كل الحلول ، هي الآن أمامي بعد تخليها

عن كرامتها وشرفها مضحية بكل شيء لتكون معي لكن هل سأفرط بها وبحياتها لأجل نفسي وأنانيتي ليس هذا حلاً ، فالهروب لم يكن حلاً ، وحتى إن هربنا ما سيحل بوالدتي وأخوتي .

سدت مسامات عقلي عن التفكير ، وأخيراً قررت أن أعيدها إلى أهلها وزوجها فهو الحل الأفضل لحياتها وربما لحياتي .

لكن كيف سأرجعها لا بد أن أهلها علموا بغيابها وسيقتلونني ويقتلونها فقلت :

- حبيبتي لا بد أن تعودي إلى أهلك وزوجك ، يجب أن تتحلي بالصبر وتؤمني بالقدر ، ولعل الله يجعل لنا مخرجاً مما نحن فيه .

نظرت إلي بانكسار وأومأت برأسها بيأس وخرجت برفقتي من الغرفة وقبل أن نخرج طرق الباب طرقات قوية وإذا بمازن يدخل لاهثاً ، وقد بان الخوف بعينيه وقال :

- مختار إن أهل سلمى وزوجها يبحثون عنها ، فقد اكتشفوا غيابها وجاءوا قبل قليل إلى بيتي ضناً منهم أنها قد هربت إلى صفية زوجتي وحين لم يجدوها ثاروا وبدؤوا يتخبطون بحثاً عنها ، وأخاف أن يستدلوا على بيتكم ، فقد رأيتهم يحملون الأسلحة وأخاف أن يضمروا لك الشر أنت وعائلتك ، فارحل من هنا يا أخي بل اخرج من المدينة كلها ، وأنا سأتكفل بإخراج أمك وأخوتك من هنا ، سأخبئهم في بيتي حتى نجد مخرجاً مناسبا ، فحضنته بين ذراعي وحضنت والدتي و قلت :

- إنهم في عهدتك يا أخي .

أمسكت بيد سلمى وخرجنا من البيت مسرعين لا نعرف أين نسير ، فقد كنت أعلم أنهم أول أمر سيقومون به هو الذهاب إلى محطة الحافلات بحثاً عنا هناك ، فقررت الذهاب إلى البساتين المنتشرة على أطراف المدينة علنا نصل إلى الطريق السريع الذي

يتجه إلى العاصمة ، وهناك سيكون صعباً عليهم إيجادنا .

كنا نسير بخطى سريعة وكنت اشعر بيد سلمى حارقة صارخة قد دبت الحياة فيها ، وحين انظر إليها المح ابتسامة مخبئة فقلت :

- كيف تكوني بهذا الهدوء والمدينة كلها تبحث عنا ؟ .

ضحكت وقالت :

- بما إني معك لا يهم ، ليحدث ما يحدث المهم أني بقربك .

شبكت يدها بيدي وحثتني على الإسراع ، فدخلنا البساتين الكثيفة الأشجار وبدأنا نتوغل شيئاً فشيئاً حتى ابتعدنا داخلها ، وانقطعت كل الأضواء إلا من ضوء القمر وتلك النجوم المجولة التي كانت تتلصص علينا وأنا أركض بها إلى اللا معلوم ، إلى برِّ الأمان ، فلم أكن أرى أمامي إلا هي وحمايتها والابتعاد بها ، فقد تلاشت كل الأفكار وتبعثرت كل القيم أمامي وليس هناك إلا قيمة واحدة وفكرة واحدة ، إنها سلمى فقط

سلمى .

دخلنا وابتعدنا لكنها قد بدأت تشعر بالتعب فأمسكت بيدي وتوقفت لاهثة وقالت :

- مختار لم اعد استطع المسير أمهلني دقيقة .

توقفت وأجلستها على الأرض وأمسكت برأسها بين يدي وقلت :

- تحملي يا حبي سنقطع البساتين وصولاً إلى الطريق العام المؤدي إلى العاصمة ، ثم نستوقف إحدى سيارات المارة حتى نصل إليها ، وهناك سنجد مكانا نختبئ فيه .

هزت رأسها مؤيدة وقالت بابتسامة :

- حسنا يا مختار التعب غير مهم ، المهم إني قد أصبحت بجانبك وحتى إن انتهت حياتي فليكن .

وضعت يدي على فمها ثم مسكت بيدها وأنهضتها وقلت

- علينا الابتعاد من هنا سنجد مكانا يقينا البرد حتى الصباح ، ففي الليل لن نجد أحدا يحملنا معه .

سارت بقربي وقد هدأت أنفاسها ، لكن الخوف بدا عليها ، فالظلام أصبح موحشاً والبرد يعصف في عروقنا ، كانت تلتصق بي مرتجفة ، ولست أدر أكانت ترتجف من البرد أم الخوف ، أم إنه الشوق فقالت مقاطعة أفكاري :

- تعلم يا مختار مقدار السعادة التي أشعر بها الآن .

توقفت وحدقت بعينيها التي كانت تشع فيها خصلات ضوء القمر ، فأكملت ضاحكة :

- لا تتعجب فكم تمنيت هذه اللحظة ، أنا وأنت وحدنا دون قيود ، دون قضبان المجتمع ، ودون هذا يجوز وهذا لا .

أعلم أني قد أخطأت بتركي البيت وزواجي ، لكني أؤمن أنه الصواب ، فلا يمكنني أن أعيش حياتي مع رجل اشتراني بنقوده ، ولا يمكن أن أعيش بدون حبك ولا بدونك .

ضممتها إلى صدري وقبلت جبينها احتويتها بين ذراعي

كنت أريدها أن تشعر بالدفء والأمان ، وسرنا بضع أمتار وصولا إلى جدولٍ صغير كنت أعرفه جيداً لطالما جئت إليه مع والدي عندما كنت صغيراً .

انقضى الليل بمعظمه ، وقد نال البرد والتعب والخوف منا ، فأجلست سلمى بجوار صخرتين كانتا تقبعان على حافة الجدول يجاورهما جذع شجرة توت كبيرة إنها ملاذاً أمنا من البرد ، فجلست مفترشاً الأرض بجوارها ، كانت ترتجف بقوة واحتويتها بين ذراعي ورأسها تحت ذقني ، فضمتني بكامل قوتها وبدأت تحكي لي مرتجفة عن لحظاتها العصيبة التي عاشتها في الفترة الماضية ، وما عانته من عذاب ، وكيف قضت أياماً بدون طعام ولا شراب والبكاء ملازماً لها ورغم محاولات أمها وأخيها سامر وحتى أختها إلا أن والدها بالرغم من محبته لم يعدل عن رأيه ، وبينما هي تتحدث بهدوء وارتجاف ضعف صوتها شيئاً فشيئاً حتى سكتت فأدركت أنها قد غفت من شدة تعبها ، فأسدلت

عيني أنا الأخر وكنت أمسح على رأسها .

كان الهدوء قد خيم على المكان حتى النجوم بدأت تلتحف بلحافها والقمر قد أغفل ، والفجر أوشك على إرسال خيوطه ، فأخذتني غفوة لم أشعر بنفسي إلا وصوت قد هزَّ البستان ، فأجفل قلبي منه .

نهضت سلمى فزعة ووقفت خلفي ، فأمسكت بيدي مرتعبة ترتجف خوفاً ، كان زوجها يقف أمامنا والشرر يتطاير من عينيه ، فقال :

- لأجل هذا الحقير تتركيني أيتها الوضيعة ؟

سوف أجعلك عبرة لمن يعتبر ، تعال أيتها الساقطة .

أقبل إلينا محاولاً أمساك شعرها وضربها إلا أني دفعته في صدره وقلت :

- لن أسمح لك بلمس شعرة منها مهما حدث .

- ومن أنت من البشر ؟

لست إلا كلباً ضالاً فلا تجبرني على ضربك ، ابتعد

عن طريقي سيكون حسابك فيما بعد ، سأربي هذه الساقطة أولاً ثم يحين دورك .

عاد يريد الإمساك بها ، ودفعته مرة أخرى ، فثار وخطا نحوي والشرر يتطاير من عينيه ومرجل الغضب يغلي في صدره ، فاستل خنجره وانقض علي

كالوحش الكاسر ، درنا فوق بعضنا ، ورميت الخنجر من يده ، و وجهت له سلسلة من اللكمات تمكن من صدها وركلني بقوة ، تباعدنا وعدنا التحمنا ، وجه إلي عدة لكمات فصددتها ، كان يدور حولي وأنا أتربص به لأتمكن منه ، لكنه قد وثب إلي وضربني على صدري فسقطت أرضاً ، فانتفضت واعتدلت

لأواجهه ، وأمسكت جذعه ولففتها ثم طويت ركبته وهوى على ظهره بقوة ، فأزاحني عنه واعتدل واقفاً فانقضضت عليه وضربته ضربات متتالية ، ضربة على كتفه وأخرى على صدره وثالثة بكل قوتي على أنفه وكسرتها فصرخ بقوة وجثا على ركبتيه متأوهاً

والدماء ملئت وجهه ، رفع رأسه واشتعلت عيناه فانطلق كقذيفة المدفع باتجاهي وأطبق بأصابعه العشرة على رقبتي ليخنقني ، ازرق وجهي وشعرت بالاختناق كان جاثماً فوقي يضغط بركبته على صدري وهو يشد من قبضته أكثراً فأكثر ، استجمعت قوتي وأمسكت ذراعيه لأدفعه عني وغرزت أصابعي في عينيه ، فترك رقبتي وتراجع عني وهو يتألم ، فضربته بقوة على رأسه وارتمى على الأرض والدماء تسيل من وجهه ورأسه كانت سلمى تنظر إلينا بخوف شديد فصحيح أن هذا الرجل زوجها شرعاً إلا أن حياتها وروحها كانت معي نظرت إليه وهو مرمي على الأرض والدماء تتدفق من أنفه وجبهته ، فتركته وسرت باتجاه سلمى التي احتضنتني ومسحت بكفها دمائي التي سالت من أنفي وفمي فقد تلقيت عدة لكمات في عراكنا ، فأمسكت بيدها لنهرب من المكان ، لكنه أظهر أنياب الغدر والخيانة فأمسك بخنجره المرمي على الأرض وسار

من خلفنا يريد أن يغرزه في ظهري وقبل أن يصل إلي لاحظته سلمى فرمت نفسها أمامي ، فأصاب خنجره صدرها وارتمت بين يدي .

نظر أبو منصور إلى خنجره المغروز في صدرها فارتعب وعاد للخلف وهرب ، نظرت إليها والدماء بدأت تسير شلالات من بين أصابعي ، بدأت أضغط على جرحها بعد سحب الخنجر ، فسرت رعشة بين أوصالي كانت الأعظم في كل حياتي ، فقد توقف الزمن والأكسجين خرج من جسدي ولم يعد إليه والضوء أصبح يقل شيئا فشيئاً ، ونسمات عقلي لم تستوعب حتى الآن ما الذي حدث إنه كابوس .

مؤكد أنَّه كابوس ، فسلمى قد تزوجت البارحة وهي في بيت زوجها ، على الرغم من حزنها وزواجها الظالم إلا أنها تتنفس ، إنها تعيش حياتها ، وروحها لا زالت تنتقل من مكان لمكان ، نعم إنه كابوس .

استيقظ يا مختار أصبح الكابوس مخيفاً ولا يطاق

نفضت رأسي وبدأت الرؤية تتضح أمامي شيئاً فشيئاً والسواد بدأ يتلاشى ، كانت سلمى بين ذراعي تئن من الألم ووجهها قد شحب لونه ، وعينيها لا تستطيع فتحهما من شدة الألم ، فنظرت إلي وبدأت تقطر دمعاً وقالت :

- حبيبي مختار سامحني لأني لن استطيع أن أكمل الطريق معك ، سامحني لأني خذلتك وسأتركك وحيداً ، سامحني لأني لن أكون جزئاً من أنفاسك للأبد .

شعرت بخناجر تجتر روحي وتقتل كياني ولم استطع حبس دموعي أكثر ، وقلت بعد أن ضممت رأسها على صدري :

- لا يا سلمى لا تقولي ذلك جرحك بسيط سأحملك الآن إلى المستشفى ، لا تخافي لن تموتي ، إنه خدش بسيط هل تستسلمي بهذه السهولة ؟

أردت أن أحملها لكنها قالت :

- لا تحملني يا مختار أرجوك ، أعلم أني أتعبتك بحبي وأني قد لا استحق منك كل هذا الحب ،لكن اعلم أني أحببتك من صميم قلبي ، وأني لم أشعر بإنسانيتي وروحي إلا معك وبك ، حبيبي مختار أريد منك طلباً أخيراً ، أتمنى فقط أن لا تنساني ، أن لا تنسى حبي وأريدك أن لا تحزن وعش حياتك وكن سعيداً سعادتك هناء لروحي حتى بعد رحيلها .

آه ، كم كنت أتمنى أن نعيش سوية لكن هذا هو القدر .

فاضت عيني بدموعها ساخنة تروي جسد سلمى فضمتها إلى صدري لا اسمع سوى أنفاسها المتأوهة و بدأت تقل شيئاً فشيئاً حتى توقفت ، أنزلت رأسها في حجري وهززت كتفيها مناديا لتسمعني لكنها كانت باردة لا تجيب ، فناديتها و ناديتها لكن روحها قد خرجت مودعة جسدها .

اسودت السماء وانقطعت الأصوات وشعرت نفسي
في بئر سحيق لا أكاد أرى النور ، فوضعتها على الأرض
أمامي لا أشعر بشيء ، كان طيفها أمامي ، حين
التقيت بها ، حين حدثتها أول مرة ، حين التقينا
وتسامرنا ، حين افترقنا وحين التقينا ، إنها أمامي حتى
اللحظة لكنها قد غادرت ، لما كل هذا الظلم ؟
لماذا تركتني وذهبتِ ؟
ما ذنبك يا حبي الأبدي ؟
كل هذا فقط لأنك أحببت ، و متى كان الحب
جريمة ؟
أردت الصراخ والصراخ ، لكن صوتي لم يكن يسمع
كان قد كتم ، فنظرت إلى الشمس التي بدأت تشرق
باستحياء ، والعصافير بدأت تحلق حولنا والأزهار
تفتحت لترسل رياحينها ، لقد رحلت يا سلمى
ودعت حياتك ، أنظري كل شيء جاء لوداعك .
الشجر والزهر وحتى الحجر كله يودعك يا سلمى .

يا الله ما لي سواك راحماً فارحم روحها وروحي .
نهضت من موضعي وحملتها لأعود بها إلى المدينة
وسرت بخطوات مهزوزة قتيلة ، لم أكن آبه بالموت
الذي ينتظرني ، فبعد موتها لا يهم ما يحدث ، المهم
عندي أن أوصلها إلى بيتها وأهلها حتى إن كانت
حياتي ثمناً لذلك ، وقبل أن أصل إلى نهاية البساتين
جاءني مازن لاهثاً فنظر بحزن إلى سلمى بين يدي
وقال:
- ماذا تفعل بنفسك يا مختار ؟
لقد عرف أهل سلمى أنهاقتلت ، فزوجها قد أخبرهم
بما حدث وقال لأبنك من قتلها ، بعد عجزك من أخذها
منه ، والمدينة مقلوبة عليك رأساً على عقب ، الشرطة
وأهلها كلهم يبحثون عنك ، وأقسموا على قتلك ، وقد
حرقوا بيتكم .
فقلت بجمود :
- ماذا حلَّ بأمي وأخوتي ؟

- هربت أهلك من المدينة إلى مكان آمن .

نظرت إليه نظرة خاوية بجسد لا حياة فيه ، فلم أكن أشعر بجسدي ولا حتى بروحي وقلت :

– لم يعد الأمر مهماً سأوصلها ولأمت بعدها ، بعد رحيلها لم يعد لدي شيء أعيش لأجله .

أمسكني من كتفي وهزني بقوة ناظراً في عيني كأنه يريد أن أستفيق وقال:

- لا تقل هذا يا مختار لا تقتل نفسك هل نسيت أهلك وحياتك ؟

نسيت أمك وأخوتك ؟

ماذا سيحل بهم بدونك ؟

أنا أعلم أنك لم تقتل سلمى ، ثم إنك إن مت هل تضن أن روحها ستكون سعيدة ، أنت مؤمن يا مختار وهذا قضاء الله ، عليك أن تكون قوياً وأن تتحلى بالصبر .

فنظرت بعينيه وبكيت وقلت – وهل يقتل الحبيب حبيبه ؟

قد غدر بها ذلك الحقير ، وأجهشت بالبكاء وجلست أضعها على الأرض ولامست وجهها وقبلتها بقلب يعتصر دماً وألماً ، فأخذ بيدي ونظر في عيني وضمني إلى صدره وقال :

- اذهب من هنا ، أنا سأوصلها إلى بيتها أذهب وليكن الله في عونك .

نظرت إليه بحرقة ونظرت إلى وجهها فقبلت جبينها وغادرت مبتعداً في البساتين .

سرت باتجاه الطريق العام وقد أقلتني إحدى السيارات المارَّة إلى العاصمة ، لكني لم أستطع أن أذهب إلى سكني في الجامعة ، ولا حتى إلى محل السيد عمران أعلم أن الشرطة ستبحث عني هناك .

انهيار شديد أصابني ، كنت أسير وأراها بدمائها أمام ناظري ، أينما سرت ومشيت كانت أمامي بطيفها وصورتها ، مضى على وداعها ثلاثة أيام وأنا منقطع عن الوجود تائه في الشوارع ، مشرداً لا أعرف أين

تقودني قدماي ، أنام في الحدائق واختفي من أعين المارة بين أزقة الشوارع خوفاً من أن يلمحني أحد من الشرطة أو أهلها ، آكل وجبة في اليوم أدفع ثمنها من النقود التي أعطاني إياها مازن أخر لقاء لنا ، وقد أوشكت على النفاذ ، بقيت على حالتي مدة أسبوع وسلمى بصورتها وضحكتها لا زالت رفيقتي الوحيدة .

تعبت من حالتي ، فذهبت تسوقني قدماي إلى محل السيد عمران ، دلفت إليه مساءً فنهض وحضنني وأجلسني بجواره بعد إغلاق باب المحل وقال :

- أين أنت يا مختار الدنيا مقلوبة عليك رأساً على عقب والكل يبحث عنك ، قد جاءتني دورية شرطة تبحث عنك وأهل سلمى ، حتى مازن كان عندي البارحة يبحث عنك وقد أخبرني بما حدث .

فقلت بخفوت :

- تعبت يا عم لم أعد أحتمل الاختباء فليكن ما يكن فليجدني من يجدني سواء أكانت الشرطة أم أهل

سلمى ، الموت خلاص لعذابي .

ربت على يدي وقال :

- لا يا مختار لم تنتهي الحياة عند هذا ، لو أنَّ كل واحدٍ منا استسلم للموت عند أول مصاب يمر عليه لانقرضت البشرية ، يجب أن تتحلى بالإيمان يا بني ومن ثم أنت لم تقتل سلمى كما أخبرني مازن ، فعل زوجها الذي ألفق التهمة بك ، عليك أن تثبت براءتك

- وكيف لمثلي أن يثبت براءته فلم يكن هناك شاهد على الحادث أحد .

قال بمسحة حانية :

- الله شاهد يا مختار ، ضع ثقتك بالله يا بني ولن يخذلك ، انهض الآن لأخذك لمكان آمن وسيكون كل شيء على ما يرام ، سآخذك إلى صديق لي تعمل عنده ويعطيك غرفة تسكن فيها ، لا تخبره عن أي شيء مما حدث وستبقى عنده حتى تنكشف الحقيقة بعدها سنرى ماذا يمكننا أن نفعل .

خرجنا وقاد السيارة خارج المدينة ، سرنا مدة نصف ساعة ، كان المعمل في منطقة معزولة يقبع بين الأراضي الزراعية وحين وصلنا سلم على رجل قريب منه في العمر وحدثه قليلاً كنت أنظر إليهما وأنا في السيارة ، فأشار أن انزل ، ففعلت وسلمت على الرجل ، ودعني السيد عمران وطلب مني البقاء عنده ريثما يأتي هو ليأخذني ، أدخلني السيد أبو عبد الله إلى المعمل كان معملاً كبيراً بصالة واسعة وغرف تحيط به ومستودع فيه الكثير من الخضار والفواكه فسرت برفقته حتى وصلنا إلى أخر الممر ، كان هناك غرفة صغيرة رديئة الطلاء بسرير واحد شبيهة للغرفة عند السيد عمران ، فقلت في نفسي وهل يمكن للفقير أن يسكن غير هذه الغرف إنها تليق بنا ، تركني وذهب جلست على السرير ولاحظت في الغرفة عدة كتب وأقلام أضنهم يستخدمونها في الحسابات ، فأمسكت إحدى الورقات والقلم وضاق بي صدري .

أشعلت سيكارتي العاشرة لهذه الليلة والأوراق أمامي والقلم بيدي ، كانت الشمعة على وشك النفاذ فأحضرت شمعة أخرى علي أضيء بها عتمات قلبي .

مضى على وجودي أو الأصح اختبائي هنا ثلاثة أيام حين جاء بي السيد عمران .

معمل خارج المدينة أعمل فيه نهاراً وأنام في هذه الغرفة ليلاً ، كان المعمل نهارا تنبض فيه الحياة من عمال وآلات وكهرباء ، لكنه ليلاً يموت وتخلو جدرانه من الحياة حتى الكهرباء تنطفئ ،فقد كان المعمل يعتمد على المولد نهاراً ، أما الليل فليس هناك من داعٍ برأي السيد أبو عبد الله ، لذلك كنت أبقى وحيداً رغم وحدتي ، يلفني الخوف والقلق مما حدث لسلمى ولأهلي وبحث الشرطة وأهلها عني .

في الليلة الرابعة جاء لزيارتي السيد عمران كان يريد أن أغير مكاني خوفاً علي ، فأمسك بيدي لنخرج من المعمل ، فخرجنا مسرعين من هناك لكن قبل أن

نركب السيارة كانت سيارات الشرطة قد أغلقت المكان وأحاطوا بنا من كل مكان ، لا بدَّ أنهم كانوا يراقبونه ، فحاول أن يهربني لكن كان المكان مغلق فأمسك بي شرطيان ، وضعا يدي خلف ظهري و وضعا الأصفاد فيها ، سحبوني ورموني في السيارة مكبل اليدين ، فقال لي سيد عمران وهو ينظر في عيني :

- لا تقلق يا مختار سأتابع الأمر بنفسي وستكون الأمور بخير .

حركت رأسي بيأس فانطلقت السيارة بي تجر معها خيبتي وألمي ، وقد عصم الشرطي عيني بعد انطلاقنا بلحظات .

السواد يلوح في كل شي والأفكار تعصف بي ، أي خير يا سيد عمران ؟

وهل بقي هناك من مزيد ؟

لكم استغرب كيف تتحمل روح الإنسان ما يمر بها من لحظات ثم بعد حين قد تعود للحياة وتضحك ، لم يعد

هناك خير في حياتي ، فلا أهلي أعرف أين أصبح بهم المطاف و لا ديار لدي بعد حرق بيتي ، ولا حبيبة بعد أن قُتلت سلمى ومن قتلها بنظرهم ، أنا الذي قتلتها ، وكيف لحبيب أن يقتل حبيبته ؟

تسير وتسير السيارة والظلمة قد اشتدت في داخلي وحين توقفت السيارة أنزلني الشرطي وأنا أتحسس موضع قدماي ، شعرت بسيري في ممرات ومداخل ثم نزل بي عدة درجات وسمعت صوت فتح باب حديدي فشعرت بالشرطي يفتح الأصفاد من يدي وضربني بقدمه على ظهري وارتميت على الأرض ثم سمعت صوت الباب يغلق ، فتحسست بيدي عصابة عيني وأزلتها ، فوجدت نفسي في غرفة صغيرة لا يتجاوز طولها المترين وعرضها متر واحد ، لا إنارة فيها ولا نافذة فقط باب حديدي سميك فيه فتحة صغيرة مقفلة بقفل غليظ ، إنها المنفردة التي لطالما سمعت عنها دون أن أراها ، تمنيت لحظتها أن يرحمني الموت

ويزورني زيارته الأخيرة لكن هنا حتى الموت لا يمكن أن يأتي بدون أذن السجان .

أفكار تأخذني وأخرى تأتي بي وجدران الغرفة أصبحت تنهش في عظامي ، فتكورت في زاوية الغرفة الحقيرة وضممت ركبتي على صدري وأسدلت عيني علني أفارق الحياة .

لم أشعر بنفسي ولست أعيهاإن كانت تتنفس أم لا فقط جدران ولا شيء غير الجدران ، مضت ليلتي الأولى ولست أدري إن كان قد طلع النهار أم لا .

كنت أفكر بشدة لما يعذبون الإنسان بمثل هذه الزنزانة هل يستحق أي إنسان أن يُعامل بتلك الطريقة حتى وإن كان مذنباً ، إنَّ السجن مقبرة الأحياء ، بل هو موت بطيء والموت أرحم .

قد مضى اليوم الأول ولم يُفتح علي الباب إلا مرة واحدة فتحت فتحة صغيرة في الباب من الأسفل ودفع لي أحد الحراس صندويش فلافل أو رذاذ

فلافل ، فحين فتشت الخبز لم أجد أي قرص فلافل يذكر فقط زيت أو رذاذ ، المهم خبز بطعم الفلافل .
حقا إن شر البلية ما يضحك ، احتقرت تلك الطريقة التي تم التعامل معي بها .
مضى الوقت ثقيلاً مقتولاً ميتاً حتى فتح الباب مرة أخرى فقال لي العسكري بصوته الجهوري الغليظ :
- انهض أيها الحق ، وجهك إلى الحائط .
فعلت بسكوت ، فقلم ووضع الأصفاد في يدي بعد أن وضعهما خلفي وأعصم عيني وجرني من يدي أتحسس خطواتي حتى شعرت بنفسي ادخل غرفة أضن أنها غرفة التحقيق فسمعت صوتاً يقول :
– مختار أحمد سالم ، اسم الأم خديجة ، طالب في كلية الهندسة المدنية ، العمر 23 سنة ، وبدأ يسرد الكثير من تفاصيل حياتي وأكمل أخيراً :
– لماذا قتلت سلمى ؟.
فقلت بتوتر :

- وكيف يقتل الحبيب حبيبه ؟

شعرت بيده كالجبل تصفع خدي الأيمن ، وقال بصوت غليظ :

- أتهزأ مني أيها الحقير لا تجب على سؤالي بسؤال .

لم استطع الكلام بشيء ، فبدأ ينهال علي بالشتم و الاهانة ويكرر السؤال وأنا فقط أقول لم أفعلها ، لم أقتلها ، أبو منصور من قتلها ، ضللت على إنكاري رغم المسبات والضرب المبرح ، بدت لا أشعر بجسدي من شدتها وكثرتها وأخيراً سمعته يقول مناديا

- ارميه في زنزانته .

فأنزلني الحارس يجرني جراً ، وكالعادة بعد فتح الأصفاد ضربني بقدمه على ظهري فارتميت على الأرض ، فتحت عصبة عيني وتكورت على نفسي ولا زلت أكرر كلامي ، هل يقتل الحبيب حبيبه ؟

هل يقتل الحبيب حبيبه ؟

ضللت لوقت لا أعرف قدره وقد أغذتني غفوة

فأجفلت عل صوت الباب ، قام الحارس ودلف علي دلو ماء بارد ، أجفلت منه روحي ليس جسدي فحسب ، وأقفل باب زنزانتي الغليظ .

بقيت لخمسة أيام كنت احسبها على الطعام الذي يحضروه لي .

كان تعذيبي يزيد يوماً بيوم وتتكرر علي نفس الأسئلة و أكرر نفس الإجابة ، اليوم الخامس قد تفاجأت بسؤال المحقق قائلاً :

- أين يمكن أن نجد صديقك مازن ؟

قلت باستغراب :

- وما أدراني أنا هنا وهو في الخارج ولم أره منذ قتل أبو منصور لسلمى .

صفعني على وجهي بقوة وأمر الحارس أن يسوقني إلى زنزانتي ، وكالعادة كان يرميني بعد أن يفك قيدي .

جلست في زاوية الزنزانة متكوراً على نفسي .

لست أعلم لما يلبس السجان ثوباً كهذا الثوب ، لست

أضنهم بشر فهم يحملون حقداً لأناس لا يعرفونهم ولم يؤذوهم ، كيف يتم تربية مثل هؤلاء السجانين ؟
تعبت من أفكاري وقد أصابني أرق وحاولت الانتحار لكن كيف وبماذا ؟
فهم في الزنازين لا يتركون أي خيط أو حديده أو أي شيء ، أحسبهم يعلمون أن السجن لا خلاص منه سوى الانتحار ، أضنهم يقولون لي حتى الموت محرماً عليك ، فقط عذابنا المفروض .
فُتحت زنزانتي و أخرجني السجان منها ، وفي مكتب المحقق حلَّ وثاق يدي وأزال عصابة عيني وأجلسني أمامه .
كان شاباً طويلاً ممشوق العضلات ، يقارب عمره الثلاثين ، ذا شارب خفيف ومسحة هادئة على وجهه اسمر اللون ، قال وهو يضع عينه في بعض الأوراق أمامه :
- أين نجد مازن يا مختار ؟

استغربت أن يكون نفس الصوت الذي كنت اسمعه كل يوم في تعذيبي ، فقد كنت اشعر بوجود وحش أمامي بغير ما يوحي به شكله اليوم ، أكانت عصابة العين هي ما تفعل ذلك ، أم أنَّه بدل وجهه إلى الوجه الآخر .

أجبته بتردد وشيء من الخوف :

- قلت لك سيدي إنني لا أعرف ، أنا هنا منقطع عن العالم وهو خارجاً .

قال بعد النظر إلي بهدوء :

- حسنا يا مختار سأعطيك هاتف وادعك تتصل به وتطلب أن تلتقي به وبعد ذلك يمكن أن تخرج من هنا

-قلت بتردد :

- لكنه يعلم أني في السجن فكيف سيقابلني ؟

فقال بغموض :

- فقط اتصل به واطلب لقائه إنه مفتاح لقضيتك يا مختار .

أعطاني الهاتف واتصلت بمازن ففرح فرحاً كبيراً وسألني عن حالي فأخبرته أني بخير وأني قد خرجت من السجن وأريد لقائه ، فأعطاني عنواناً في إحدى المدن المجاورة للعاصمة ، فاتفقت معه على اللقاء في اليوم التالي .

أقفلت الهاتف وأعادني السجان إلى زنزانتي ، بقيت طيلة الليل مفكراً بما يمكن أن يكون مازن قد فعل وما علاقته بحل قضيتي ؟ ولما هو مختبئ من الشرطة ؟ أسئلة تدور في رأسي لا أجد لها جواباً حتى فُتح باب الزنزانة في اليوم التالي .

خرجنا أنا الضابط ومعنا اثنان من الشرطة ، مرتدين لباساً مدنياً وركبنا بسيارة مدنية احسبها للضابط نفسه انطلقنا باتجاه المدينة التي وعدت مازن فيها ، وفي الطريق أعطاني الضابط الهاتف وطلب من مكالمته ففعلت ، قال : -

انتظرني عند الدوار واسماه لي وسأمر عليك بسيارة

رماني الضابط هناك وترك برفقتي احد رجاله ، دقائق وكان مازن يقف بجواري بسيارة بيضاء لم أرها عنده من قبل ، فصعدت في الخلف و الرجل المرافق لي بجواره ، فسار بالسيارة مبتعداً خارج المدينة ، نظر إلي بمرآة السيارة وسألني :

- ما لي أراك شاحبا يا مختار ؟

أضنك تعبت من السجن ، لا تحزن يا صديقي ستكون الأمور بخير ، سآخذك إلى مكان تنكشف فيه كل الحقائق لكن من هذا الذي معك .

قلت بهدوء :

- إنه صديق كان معي في السجن وخرج قبلي بيوم .

هز رأسه وأكمل القيادة فجاورتنا سيارة الضابط وتوقفت أمامنا مباشرة ، فتوقف مازن ، نزلت من السيارة و نزل الضابط متجهاً إلينا ، فانطلقت سيارة مازن بسرعة فائقة فسحب الضابط ومن معه رشاشات من سيارتهم وبدءوا بإطلاق النار عليها

من الخلف ، كانت جبهة حرب لكن السيارة قد سارت مبتعدة ، فرماني الضابط في سيارته وانطلق ب ملاحقاً مازن ، وبعد ثلاث كيلو متر توقفت ونزل الشرطي وهو يحمل مسدسه ، فأخرج مازن من السيارة ورماه على الأرض ، كنا قد وصلنا بسيارتنا إليهم فوضع الضابط الأصفاد بيدي مازن وحمله معنا في سيارته بعد أن عصم عينيه وقيدني وعصم عيني أنا الآخر .

كنت مذهولاً مما حدث ، فلما كل هذا ؟

وما الذي فعله مازن حتى هرب ؟

ولما قيدوه بهذه الوحشية ؟

وكيف حدث وخنت صديقي وسلمته ؟

وساوس وأفكار بدأت تقتل وجداني ، فقد كنت أحسب أن الأمور قد حُلت وأنَّ الحقيقة كشفت لكن ما حدث اليوم زاد الموضوع تعقيداً بتعقيد .

سرنا بالسيارة وأنا معصوب العينين مقيد اليدين حتى

وقفت السيارة وتم اقتيادي إلى زنزانتي ذاتها .
ولا اعلم ما حل بمازن ولا أين هو ، واللوم لنفسي بدأ يقتلني ، ألا يكفيني مصيبتي بحبيبتي لتأتني مصيبتي بصديق عمري ؟ .
مرَّ الوقت بطيئاً مقيتاً لا يكاد ينتهي ، وفي المساء فتح باب زنزانتي وتم اقتيادي إلى زنزانة أخرى لم تكن منفردة ، بل كانت كبيرة واسعة فيها نسقين من الأسرة بطابقين وعلى كل سرير يوجد سجين ، رماني الحارس وأوصد الباب خلفه ،فجلست على سرير كان فارغاً ونظرت لوهلة إلى وجوه الموجودين .
منهم من كان حليق الرأس ومنهم من كان أشعر الوجه والرأس ومنهم من كان نائما وأخر صاحياً وكلٌّ منهم كان يحمل همه وأحزانه وحيداً ، فجاء إلي اثنان منهم ، أحدهما كان سمين الوجه حليق الرأس حنطي الوجه بعينين غائرتين ، أعطاني سيكارة وأشعلها و الثاني رفيع الوجه أهدب العينين طويل القامة .

أحضر لي كأساً من الشاي ، وقال :

- ستكون الأمور بخير يا صديقي هون عليك .

كان الوضع مختلفا هنا فعلى الرغم من أنه سجن ، إلا أنه أخف ، فسألني أحد الشابين بعد أن عرفني باسمه واسم رفيقه :

– أنا عدنان وهذا علي ، أخبرنا بأي جرم جئت هنا .

نظرت إليه بمسحة تردد وهدوء ولم أجب ، ففهم أني متعب ولا يمكنني الكلام ، فتركتي على راحتي .

فهمت بعدها أنَّ هذا السؤال يُطرح على كل مسجون وأنَّ تلك الزنزانة ليست السجن العام ، إنما هو فرع للتحقيق ، والمساجين هنا منهم من له شهر ومنهم اثنان أو ثلاثة شهور على ذمة التحقيق ، ومنهم من تخطى ذلك دون العرض على القاضي ، منهم من تم مقاضاته ولم يصدر الحكم به حتى الآن .

كان الوقت يقتل أوصالي على الرغم من وجود أناس معي في نفس الزنزانة ، فالنظام فيها مختلفاً ،فقد كانوا

يوزعون الطعام على ثلاثة وجبات ، والإنارة مستمرة وهناك حمام ، والماء موجود ، وحتى المعاملة التي يعامل بها السجناء أقل وطأة منها في سجني الأول لكن السجن هو السجن والوقت البطيء هو ذاته ، والنوم الذي غادر عيني ذاته ، سألني عدنان ، ذلك الشاب المسكين له في هذه الزنزانة ستة أشهر دون محاكمة ولا يعرف مصيره ولا إلى متى سيضل حبيس تلك الجدران فقال لي :

- مضى على وجودك هنا تسعة أيام وإلى هذه اللحظة لم أرك نائماً ولو للحظة واحدة ، كلما نمت أراك صاحياً وإذا استفقت لا زلت صاحياً متى تنام أخبرني ؟

ابتسمت شبه ابتسامة ولم أجبه ببنس كلمة ، كنت كما قال لا أنام إلا ساعات بعد الفجر ، وأطيل الصمت ولا أكاد أحدث أحد وما زاد رعبي وخوفي هو انقطاع المحقق عن طلبي ، تمنيت أن يعود لتحقيقه حتى لو عاد عذابي ، ولا خبر لدي عن مازن

و هل سأبقى هنا للأبد ؟

ولست اعرف أخباراً عن أهلي .

انقضت أيام ثقال على قلبي وفي مساء اليوم التاسع عشر دخل السجان إلينا ونادى باسمي، فنهضت مسرعاً ، فقيدني وقادني إلى مكتب المحقق وفك قيدي وأجلسني على الكرسي .

كان غير ذلك المحقق شاب ابيض الوجه طويل القامة يضع نظارات طبية على عينيه ، يضع عينيه في بعض الأوراق أمامه ، فسألني دون النظر إلي عن مكان ولادتي ومكان إقامتي وعملي وبعض الأمور بعيداً عن قضية مقتل سلمى ، ثمَّ نظر إلي نظرة تفحص وقال :

- مختار أنت حر يمكنك المغادرة، هل لديك أغراض عندنا ؟.

لم استوعب كلامه في البداية ، أيمكن أن أكون قد أخطأت السمع ؟

فسألته مترددا :

- سيدي هل سأخرج ؟

فقال بهدوء :

- نعم يمكنك الخروج ، سيعطيك الحارس أغراضك وتغادر ، فنادى على الحارس فسار بي إلى مكتب مجاور وأعطاني هويتي وحزام بنطالي وقال بهدوء :

- هل لك أغراض أخرى ؟

حركت رأسي نافيا فقال :

- يمكنك الذهاب أنت حر .

أنت حر كلمة تردد صداها بعقلي لحظات طويلة وأدركت كم تستحق الحرية من تضحيات ولماذا تقوم الثورات لأجلها .

خرجت من مكتبه امشي في الممر خارجاً إلى النور ففوجئت بوجود مازن بانتظاري هو والسيد عمران ركضت محضناً له بشدة كدت اكسر عظامه ، فأخر شخص كنت احسبني سأراه هو مازن بعد أخر مرة التقيت به ، وما حدث لنا ، فبكيت وأنا احتضنه

ولست أدر لما كانت دموعي أهي دموع الفرح أم دموع القهر ، فنظر إلي وربت على كتفي وقال :

- ألن تسلم على السيد عمران ؟

ابتسمت وحضنت السيد عمران فهمس بأذني قائلا :

– ألم أقل لك أن الأمور ستكون بخير ، وأنَّ الله لا يمكن أن يترك مظلوما أبداً .

نظرت في عينيه وابتسم وامسك يدي وصعدنا السيارة كان مازن يقود ، فسار بنا إلى بيت السيد عمران كان بيتاً كبيراً مؤلفاً من طابقين ، يحيط به سور عال داخله حديقة جميلة ، وحين دخلنا أردت أن أسألهم عن أشياء كثيرة ، لكن السيد عمران أبى أن نتكلم حتى استحم وأرتاح ، ثم بعدها سيخبرني بجميع التفاصيل .

امسك بيدي و صعدت معه إلى الطابق الثاني ، كان مؤلف من ممر وثلاثة غرف للنوم ، بالإضافة إلى مكتب للسيد عمران ، فأدخلني إلى إحدى الغرف

وقال :

- هذه غرفة ابني قصي إنه مسافر خارج البلد ، افتح الخزانة واختر ما يناسبك من لباس ثم استحم وبعدها نتكلم .

خرج وتركني وحيداً فدخلت الحمام ، كان في نفس الغرفة ، فتحت الماء على رأسي أريد أن أزيل كل ما علق به .

لحظات ليست بالقليلة بقيت فيها تحت الماء ودموعي تنزل مع قطراته، كم تمنيت أن تزيل همي كما يزيل الماء الأوساخ التي علقت بي ، لعلَّ الدموع تشفي جراحي وتجبر كسور كرامتي كما تفعل المياه بخصلات شعري ؟

نظرت إلى المرآة المكتسية بالضباب الكثيف ، كنت أبحث عن وجهي من خلالها ، حسبته بقي خلفي هناك يقبع في تلك الزنزانة الحقيرة ، فمسحت بيدي عليها ليظهر وجهي الواهن فحدثته قائلا :

- لا زلت هنا يا مختار ، لا زلت تتنفس ، كم من الأوجاع ستحتمل ؟

لا بأس يا مختار الحياة تستمر ، لا بد أن تستمر .

خرجت من الحمام وجلست لدقائق قبل أن أبدل ثيابي ونزلت إلى الصالون ، كان السيد عمران يجلس ومعه مازن وشخص أخر كان يعطيني ظهره ، فلم أعرفه حتى نزلت جميع درجات السلم ، وحين أقبلت حييتهم فقام مازن وجنبه قام سامر شقيق سلمى ، فضمني بين ذراعيه وشدني إليه بقوة ثم ابعد جسدي قليلا ، ونظر في عيني وقال :

- الحمد لله على سلامتك يا مختار .

نظرت إليه ثم إلى مازن والسيد عمران مستفهماً فقال السيد عمران :

- اجلس يا مختار وسنحكي لك عن كل شيء .

جلست أنظر في وجوههم فقال مازن :

- أنت تعرف يا مختار كم كان سامر يحب سلمى وهو

من ساعدنا لكشف الحقيقة .

هزَّ سامر رأسه وقال :

- دخلت إلى البيت ، كان الهدوء يعم المكان ولم أسمع صوت أمي كعادتها في المطبخ ، دخلت إلى غرفة سلمى اطمأن كعادتي عنها ، فطرقت الباب عدة طرقات ولم يجبني أحد ففتحت الباب ، كانت تبكي بشدة وصمت ، فقط دموع تجري فقلت فزعاً :

- ما الأمر يا سلمى ما يبكيك .

أخبرتني بما حدث وأمر خطبتها المشئومة من ذلك الرجل ، فمسحت على شعرها وقلت :

- لا تقلقي لن أسمح بهذا ، لا يمكن أن تكون تلك الخطوبة .

وفي المساء عاد والدي وحدثت بيني وبينه مشادة كبيرة على إثرها طردني من البيت ، فخرجت غاضباً وأردت أن لا أعود لكن في المساء جاءني اتصال من سلمى تخبرني كم هي بحاجتي فرجعت ودخلت غرفتها

أخبرتني بحبها لك ومدى حبك لها في المقابل فقررت أن أقوم بتهريبها قبل زواجها ، فلا يمكنني أن أراها تصلب وأنا أنظر ، وفي يوم الزفاف استطعت ذلك وجاءت إليك .

دار في ذاكرتي حين سألت سلمى عن كيفية هروبها ومن ساعدها فلم تجب .

نضر سامر إلى الفراغ وقال :

- كنت على تواصل مع مازن فقد أخبرته أنني هربتها وأن أهلي قد جاءوا للبحث عنها في بيته ، وطلبت منه أن يأتي إليك ليحذرك وأهلك ، وبعد الجريمة التي حدثت اتصل بي مازن وأخبرني بما جرى وطلب مني أن أتي لأخذ سلمى .

نزلت دمعة من عينه وقال :

- بكيت كثيراً وأقسمت أن أقتل أبو منصور وحاولت أن اشرح لوالدي وأقاربي أنه من قتل سلمى لكنهم ثاروا علي وضربني والدي وطردني .

بعد دفنها قام مسعود وبعض من شبان أقاربنا بحرق بيتكم على الرغم من محاولاتي اليائسة من منعهم .

انقضت أيام العزاء وكانت الشرطة تبحث عنك بعد ادعاء أبو منصور قتلك سلمى ووجود بصماتك على الخنجر الذي قتلت به .

قلت بحزن :

- قد سحبته من جسدها لأنه كان يؤلمها .

حرك رأسه بيأس وقال :

- كان لا بد من كشف الحقيقة ، تواصلت مع مازن فاجتمعنا عنده بعد القبض عليك ، فاتصل بالسيد عمران وطلب منه أن نلتقي ، وقد التقينا هنا في بيته واتفقنا على خطف أبو منصور فهو وحده الحلقة المفقودة .

رسمنا خطة محكمة و بسبب جشعه وحبه للمال وعدم معرفته بالسيد عمران جاء إلى الموعد الذي طلبه منه بحجة عمل تجاري ، وحين جاء أمسكنا به وكبلناه

وأخفيناه في مكان بعيد معزول خارج المدينة .

كنا نعذبه ليعترف بجريمته لكنه كان صامداً ، وبدأت الشرطة تبحث عنه وعن مازن ، وبعد ما حدث معك ومعه وقبضهم عليه جاءني السيد عمران فزدنا تعذيبه حتى اعترف بعد خمسة أيام من التعذيب وصورنا اعترافه ، فأخذه السيد عمران إلى الشرطة وعلى أثرها خرج مازن من السجن ، ثم بعد ثلاثة أيام تم الإفراج عنك .

نظرت إليهم بامتنان وقد غمرت عيناي بالدموع فلولا وجودهم لقضيت حياتي كلها سجينا والموت أرحم من السجن فسألت مازن :

- ماذا عن والدتي وأخوتي ؟

- إنهم بخير بعد كشف الحقيقة تعهد أبو مسعود بإصلاح بيتكم واستأجر لهم بيتاً يجاوره ريثما ينتهوا من إصلاحه ، وقد أخبرتهم بخروجك من السجن وهم بانتظارك .

- وسلمى أين دفنت ؟

- في المقبرة الغربية على التلة الصغيرة ، إنها ذاتها التي دفن والدك فيها .

- أريد أن أراها ، سأسافر إليها .

الخاتمة :

عند نهاية كل الأشياء ، تبقى الكلمات معلقةً في الحناجر .

كم من كلمات حبيسة ماتت قبل ولادتها ، اندثرت في العيون قبل بصرها ، كلمات أردنا أن نطلق سراحها قبل فوات الأوان ، قبل موت الأحبة وقبل فراقهم الأخير .

وصلت إلى مدينتي عند الغروب ، فذهبت إلى المقابر إلى حبيبتي سلمى ، لا زال التراب نديا ، لا زالت أنفاسها عطرة ، جلست أطوف بنظري على التراب .

واشمته بين كفي .

أنت هنا يا سلمى ؟

لم تغيبي عني يا حبيبتي ، أنت ساكنة بين ضلوعي .

أنا معك ولن تركك بعد اليوم ، سنكون سوية ولن أفترق عنك ما حييت .

أين روحك التي وعدتني بالصمود ؟
الروح التي تغلغلت في روحي وسجنتها ، إنها هنا تحت التراب .
وضعت كفي على وجهي ونزلت دموعي .
الشمس لاحت على الغروب ، يا شمس هل بعد غروبك شروق ؟
أيمكن للروح أن تحيىبعد موتها ؟
إنها أمامي ، إنَّ روحها قد تبعثرت ، تبعثرت وأصبحت أشلاء وبعثرت معها روحي ، نعم لقد تبعثرت أرواحنا وأصبحت غبار طلع انتشر في الهواء .
نهضت و قد أشاحت الشمس بنورها مودعةً مستريحة لانتظار يوم جديد ، فشعرت بدفء يدٍّ تمسك يدي ، نظرت إليها كانت نور تنظر إلي بحزن .
فنظرت خلفي كان مازن يقف من بعيد ، كم أنا ممتن لوجودك في حياتي ، فلولا الصداقة لماتت المعاني الجميلة .

سيحل فصل الربيع وتنبت الأزهار من جديد ، ويبقى الألم أثراً في الذاكرة سيمحوه الزمن .

قد يكون هناك أمل ، قد تقتل الأرواح وتصلب لكنها تقاوم ، قد تتبعثر كأوراق الخريف لكنها ستنبت ،إنها الأرواح المعذبة .

الأرواح الخالدة .

و الأرواح المبعثرة .

..... النهاية .....

شكر خاص لك أيها القارئ في زمان ضاعت فيه الكتب واندثرت فيه معالم الحضارة

حسان سلطان